العمارة العربية الاسلامية

م. علي سعد عبد الوهاب

المحاضرة العاشرة

جامعة المثنى

كلية الهندسة

قسم هندسة العمارة

العمارة العربية الإسلامية في عصرها الحاضر

ومن البدهي أن متابعة الحديث عن حاضر ومستقبل العمارة الإسلامية تتطلب متابعة الأحداث الحضارية والمعمارية التي وقعت في الماضي القريب جداً والذي يتصل بالحاضر وما صحبها من تطورات سياسية وحضارية منذ القرن الماضي حتى الآن ، والتي كان لها أخطر الآثار على الاتجاهات المعمارية في البلاد الغربية من أوروبية وأمريكية ارتبطت بها بأوثق الصلات البلاد الإسلامية عامة والعربية خاصة .

فلقد طرأت على العمارة الأوروبية في تلك الحقبة تطورات غاية في الأهمية بسبب ازدهار صناعة الحديد والصلب وما تبع ذلك من إقبال شديد على استعماله كمادة أساسية للبناء ، ثم أخذ بتزايد مع ظهور الولايات المتحدة الأمريكية على مسرح الحضارة العالمية ، والتي كانت تزدهر فيها أيضاً صناعة الحديد والصلب ، وأقبل الأمريكيون على استعماله على نطاق واسع في البناء وما نتج عنه من الاتجاه الرأسي في البناء ، والذي كان من بعض نتائجه ابتكار ناطحات السحاب ، وبخاصة في المدن الكبيرة وفي الأحياء التجارية منها ، حيث تصل أسعار الأراضي فيها إلى مستويات خيالية أحياناً .

وأدى الاتجاه في البناء رأسياً والمغالاة في ارتفاعات الأطراف العليا للعمائر أن توارت أهمية الطنف والحليات والتفاصيل المعمارية الكلاسيكية ، بل إن عدم الاهتمام هذا قد زحف نحو أطراف وخارج المدن بل وإلى بقاع من الريف في كل من أوروبا وأمريكا ، وحتى تلك التي ظلت محتفظة بأساليب البناء بالمواد التقليدية أي الحجر والآجر والخشب وغيرها .

أما في العمائر التي شيدت أساساً بالحديد فقد اقتصر دور تلك المواد على استعمالها كحشو بين الأعضاء الحديدية .

ومن الجدير بالذكر ، أن نشير إلى ذلك البناء ذي الشهرة العالمية وهو برج إيفل في باريس والمشهور باسم مهندسه جوستاف إيفل الألماني الأصل ، والذي يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠٠ متر ، وكان قد شيد في عام ١٨٨٩ م[1] بمناسبة إقامة معرض باريس التجاري والصناعي على عدة سنوات من عام ١٨٥٥ م إلى ١٩٠٠ م ، كما أتاح استعمال الحديد بناء وحدات معمارية وقاعات ذات اتساع كبير كما انتشر استعمال الزجاج وغطيت المسطحات الكبيرة به وبخاصة في الأسواق وبيوت النباتات وغيرها .

وكان لاستعمال الحديد والصلب نتائجه الخطيرة أيضاً لا من حيث طرق وأساليب البناء والتصميمات فحسب ، بل ومن حيث الاتجاهات في تخطيط المدن ، فقد أدى إلى عدة تطورات وظهور اتجاهات جديدة في طرز العمارة في العالم كله .

وكان ابتكار الخرسانة المسلحة من تلك النتائج الهامة ، إذ انتشر استعمالها وبخاصة في البلاد التي ترتفع فيها أسعار الحديد . وكان لهذا الابتكار بدوره آثاره الكبيرة على طرق وأساليب البناء والتصميمات أي الطرز المعمارية .

ومنها أيضاً نتائج غير مباشرة تتصل بصناعة الحديد والصلب مثل اختراع السيارة التي تطورت إلى آفاق واسعة حتى صارت من لوازم الحياة للناس على اختلاف طبقاتهم ، وما نشأ عنها من آثار مباشرة وغير مباشرة على تخطيط المدن ، وبالتالي على التصميمات المعمارية وطرزها .

وتبلورت تأثيرات تلك المبتكرات وغيرها وظهرت بوضوح قبيل الحرب العالمية الأولى في الاتجاهات المعمارية ولكن عوقتها تلك الحرب عن التطور السريع ، وصاحبت نهايتها تعديلات في الحدود الجغرافية والسياسية في مناطق متعددة من العالم في ذلك الوقت ، يهمنا منها الشرق الأوسط والأدنى وجنوب أوروبا وشمال إفريقية التي تقلص عنها حكم العثمانيين ووزعت أملاكهم على الحلفاء الأوروبيين المنتصرين ، ومن ثم أصبحت لهم السيطرة الكاملة على أقطار العالم الإسلامي من أغلب النواحي الحضارية والعلمية ، ثم الفنية والمعمارية بوجه خاص .

وتزايدت عجلة تأثيرات تلك الثورات الصناعية والتكنولوجية منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى حتى أخذ الناس في أوروبا وأمريكا ينظرون إلى الطرز الغربية السابقة على أنها صارت غير صالحة كما كانت للتمشي مع تلك

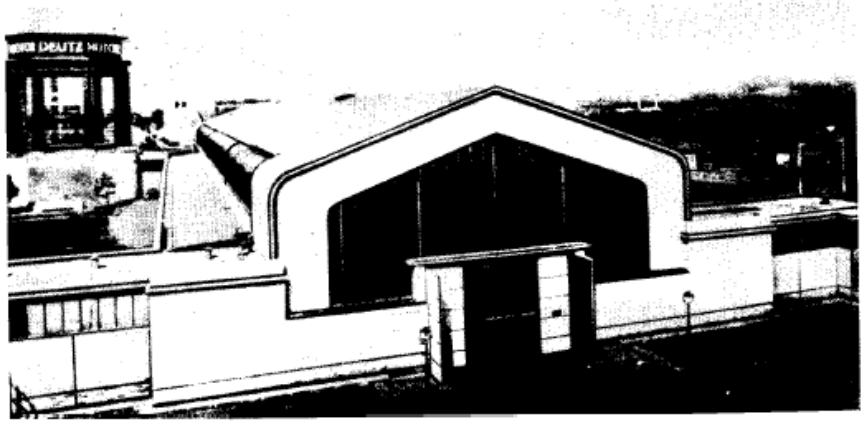

ش : ٢٣ ــ ألمانيا ، مصنع للزجاج

نريجة

المواد الجديدة التي أخذت تتنوع أساليب استخدامها كلما تقدم الزمن ، وأخذت الأذهان تتفتق عن غيرها مثيل الزجاج والألياف الصناعية ومشتقات البلاستك والمواد المعدنية الأخرى الطبيعية والمصنعة مثل الألومنيوم وغيرها .

وصاحب تتابع ظهور تلك المبتكرات إقبال كبير على استخدام الكهرباء والفحم وأنواع الطاقة الأخرى مثل البترول ، في تشغيل الأجهزة التي ابتكرت لتوفر للناس أكثر ما يمكن من أسباب الراحة بل الترف في حياتهم ، ومن ثم فقد اندفع المعماريون في حماس كبير نحو الانتفاع بأكثر ما يمكن من تلك المبتكرات والاختراعات وصياغة القوالب المعمارية التي تتفق مع خصائصها ، ومع متطلبات البيئات المختلفة واستعمالاتها في نواحي معيشتها .

كل ذلك أنبت مذاهب معمارية في العالم الغربي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب العالمية الثانية ثم من بعدها حتى وقتنا هذا .

وبدأت تتجلى هذه الاتجاهات الحديثة بعد قليل من انتهاء الحرب العالمية الأولى في العمائر التي شيدت في معرض باريس الدولي الذي أقيم في عام ١٩٢٥ م ، والذي وضحت فيه الاتجاهات نحو الاعتماد بصفة رئيسية على الشكل العام (Form) والمستويات والخطوط المبسطة ، إلا أن المعماريين لم يكونوا قد تخلصوا بعد من صفات وملامح من الطابع الكلاسيكي غير المتطرف في التجريد ، بينما انتشرت تلك الاتجاهات وزادت في الولايات المتحدة الأمريكية وامتدت إلى أنواع أخرى من العمائر إلى جانب ناطحات السحاب ، أي إلى العمارات السكنية والصناعية والترفيهية وغيرها[٢] .

وكان من رواد تلك الاتجاهات من قبل الحرب العظمى الأولى المعماري الأمريكي الكبير فرانك لويد رايت (Frank loyd Wright) ، والذي أصبح من المتفق عليه بين المعماريين المحدثين اعتباره أكبر رائد لتلك الاتجاهات المعمارية الحديثة وللأسس التي قامت عليها سائر حلقات التطورات في المراحل التالية ، واحترام تجاربه في العمارة ونظرياته الجديدة المتمثلة في عمائره التي قام بتصميماتها ، وذلك بسبب تميزها بالفراغ العضوي (Space) والشكل العام والتكوينات التجريدية والتخلص من استخدام الطنف (entablature) والحليات المعمارية التقليدية في العصور السابقة ، وكل ذلك فعله متقدماً بفترة ليست بالقليلة على محاولات الأوروبيين من الرواد الذين كونوا لهم مدارس ومذاهب مختلفة في العمارة الحديثة كان من أشهرها « الباوهاوس » (Bauhaus) والذي هاجر كثير من أتباعه إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أيام الحكم النازي ، واستقروا فيها بصفة نهائية وساروا أشواطاً واسعة في تطوير مذاهبهم المعمارية الحديثة التي عاصرهم فيها المعماريون في أوروبا . ولكن مما يجدر ذكره أن فرانك لويد رايت ظل إلى آخر حياته يتميز بأنه لم يصل إلى حد التطرف في الاتجاهات التجريدية والتكعيبية التي وصل إليها المعماريون الآخرون من الأوروبيين والأمريكيين والمتأمركين ، وظلت أعماله تتسم بالاتزان والاعتدال .

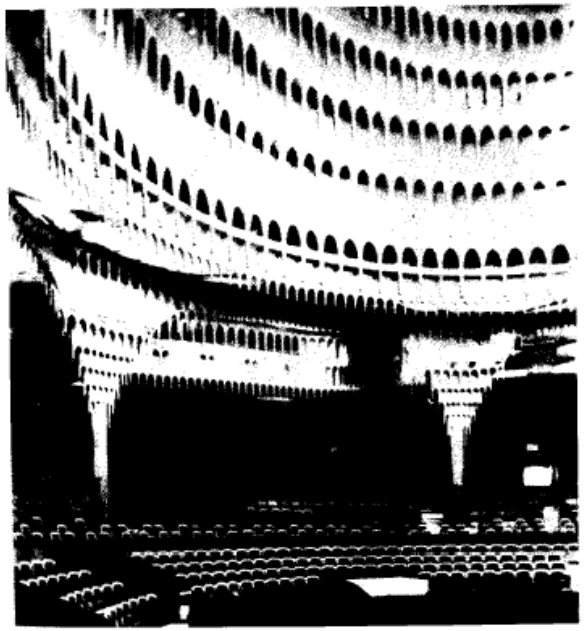

ش : ٢٣١ ــ ألمانيا ، قاعة المسرح الكبير ببرلين شريحة

والذي لا شك فيه ، أن أولئك الرواد من الأوروبيين قد تأثروا باتجاهاته ونظرياته منذ أن نشرت تصميماته في أوروبا في عامي ١٩١١ و١٩١٢ م ، وبخاصة في ألمانيا ، واطلع عليها معماريوها في ذلك الوقت ، وكان منهم « والتر جروبياس » (Walter Gropius) وهو أحد الذين أصبحوا من أشهر رواد المذاهب الحديثة قبل وبعد الحرب العالمية الثانية ، وبخاصة بعد أن هاجر إلى الولايات المتحدة مع غيره كما سبق ذكره ، وكان معه رائد ألماني آخر هو « ميس فان دروهي » (Mies Van Der Rohe) وغيرهم من أصحاب مدرسة « الباو هاوس » .

ومن الرواد أيضاً « لوكوربوزييه » (Le Corbusier) الذي بدأ حياته كمصور (painter) ، ثم درس الخرسانة المسلحة واشتغل فترة في برلين وسافر كثيراً ، وأثرت تجاربه ومعلوماته عن الفن التكعيبي على تكوين شخصيته وعلى أعماله المعمارية والإنشائية ، وبخاصة في مشاكل الإسكان الاقتصادي التي استغرقت فترة طويلة من حياته ، وهو صاحب القول المشهور عن المسكن بأنه « آلة للمعيشة » . وعلى الرغم من اقتناعه بأسس ما سمي « بالطراز الدولي » ، الذي ستتحدث عنه بعد قليل ، ويقوم على فكرة الخطوط والمستويات المسطحة ونظريات التجريد والوظيفية ، فإنه خرج على ذلك في بعض الأحيان إلى المنحنيات والاستدارات ، ولكننا نراها من وجهة نظرنا تتسم بالصلابة والثقل المبالغ فيه .

كما لمعت أسماء معماريين كثيرين في بلاد شمال أوروبا وفي اليابان وأمريكا اللاتينية واستراليا وغيرها ، وكلهم ممن ساروا في نفس الاتجاهات ، ولا يتسع المجال لاستعراض وتحليل أعمالهم وأهم مميزاتهم ، غير أنه يمكن القول بأنها تتبع في عموميات الطراز أو الطابع الدولي . ولم يمنع هذا الاندفاع من أن يكون من بين هؤلاء الرواد من خالف ذلك الاتجاه التكعيبي وأشكال علب الكبريت إلى إخضاع الكتل المعمارية إلى تكوينات هندسية سواء من الداخل أو الخارج . ومنهم عدد من الإيطاليين من أمثال « أنريكو كاستليوني » (Enrico Castiglioni) و « بيير لويجي نيرفي » (Pier Luigi Nervi) الذي نشر كتاباً عن العمارة الإسلامية ، و « جيو بونتي » (Gio Ponti) ، و « كاليني » (Calini) و « منتووري » (Mantuori) . كما ذاع صيت رائد منهم في اليابان هو « كنزو تانجه » (Kenzo Tange) .

وقد أطلق اسم أو اصطلاح « الطراز الدولي » على موجة التجارب المعمارية التي حظيت بدفعة قوية في أثناء العشرينات من القرن الحالي ، ثم ازدادت قوة ووضوحاً في معرض للمذاهب التقدمية أقيم في نيويورك في متحف الفن الحديث عام ١٩٣٢ م ومنذ أن أعيدت في سرعة كبيرة الاتصالات بين المعماريين بعد الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم انتشرت الإشعاعات المعمارية على نطاق واسع في العالم كله حتى أصبح من الصعب الحديث عن طراز خاص بإقليم بذاته .

ومن الأسس الهامة لذلك الطراز الدولي الخواص الإنشائية للحديد والصلب والخرسانة المسلحة ، والتي صيغت منها هياكل المباني ، مما تسبب نهائياً في الاستغناء عن الجدران الحاملة للمبنى . وصارت الحوائط الخارجية والداخلية بمثابة مستويات وألواح من الزجاج أو المعادن أو الحجر والطوب وغير ذلك من الخامات الطبيعية أو المصنعة ، أي أصبحت بمثابة أغلفة وفواصل ليس لها عمل إنشائي كما كانت في الطرز السابقة .

وكان من أسس الطراز الدولي أيضاً العناية القصوى بالوظيفة التي يجب أن يؤديها المبنى أو الوحدات المعمارية ، غير أن البعض من المعماريين قد تغالى في إعطائها الأهمية الكبرى ، على زعم أنها هي كل شيء في العمارة .

وليس هناك من شك في أن الخواص الإنشائية للحديد والخرسانة المسلحة قد ساعدت على الإكثار من عمل الفتحات من أبواب ونوافذ ومن اتساع مساحاتها ، مما يخدم كلا من الوظيفة وسهولة الاستعمال والتوزيع والاتصالات بين الوحدات التي يتكون منها المبنى ، ثم مرور أكثر ما يمكن من الضوء وبخاصة في بلاد تتلهف على الحصول على أكثر ما يمكن منه ومن أشعة الشمس .

وساعدت أيضاً تلك الخواص الإنشائية على سهولة التصميم المعماري الخارجي والداخلي والمكون من خطوط رأسية وأفقية ومن نظام مكرر ليس فيه التماثل الكلاسيكي ولا الحليات والزخارف التي لا ترتبط عضوياً بالكتلة المعمارية نفسها ، بل يعتمد كل الاعتماد على التناسب الناتج من توزيع المسطحات الصماء والمسطحات المفرغة ، وهي أفكار في رأينا لم تكن تحترم كثيراً ، إذ حدث أن أضيفت مستويات وأسطح غائرة وبارزة لا عمل ولا وظيفة لها سوى محاولات إلقاء الظلال والإقلال من التكرار الممل ، وهو نفسه التفكير الكلاسيكي في أغلب الطرز القديمة ، ومنها العمارة الإسلامية ، ويتضح هذا جلياً فيما اتبعه بعض أساتذة المدرسة الهولندية الحديثة الذين لم يلتزموا بدقة بنظريات واتجاهات الطراز الدولي[٣] .

غير أن خصائص الطراز الدولي قد أتاحت الفرصة لاتساع الوحدات المعمارية بعد الاستغناء عن الجدران السميكة ، كما كانت من أهم العوامل المساعدة على التخطيط العمراني والمشروعات الكبيرة للإسكان القليل النفقة ، وغير ذلك من المشروعات المعمارية الاقتصادية التي تشيد على نظام الوحدات القياسية المكررة أو « الموديولية » (Modulus System) .

ومهما يكن من أمر فلا مناص من الاعتراف بأن ذلك الطراز الدولي قد أوفى مثلما سبقه من طرز تاريخية بحاجات بيئات الناس في العصر الحديث ، بل إنه أصدق مرآة عبَّرت ولا زالت تعبر عنها وتعكس طبيعتها الآلية والمادية التي تتمشى مع مطالب المعيشة التي تعيشها البيئات الجديدة .

أو بمعنى آخر ، إن ذلك الطراز الدولي يكشف بجلاء عن أن العامل الاقتصادي أصبح يسيطر تماماً على جميع نواحي حياة الناس ، وأن المادية هي التي صارت تتحكم ، وما زالت ، في الحضارة الغربية والبلاد المتقدمة التي أصبحت قدوة يسير في ركابها العالم بأسره تقريباً لما أحرزته من نجاح في النواحي السياسية والحربية والاقتصادية والصناعية جعلها تبسط نفوذها الطاغي على العالم كله في تلك النواحي .

وليس هناك من شك في أن الصراع العنيف على المادة واستغلال الشعوب قد أصاب الروحانيات والقيم الانسانية بهزة ، بل بهزات شديدة ، كان من نتائجها الحتمية قيام الحروب الضارية من قبل الثورة الفرنسية حتى الحربين العالميتين : الأولى والثانية ، واللتين ، والحق يقال ، كانتا مسئولتين عن الدفعات القوية التي نالتها الأبحاث العلمية وعن نتائجها من الاكتشافات الخطيرة في ميادين الصناعة والعلوم والتكنولوجيا .

وإذا كانت تلك النتائج تعد من الآثار الطيبة لتلك الحروب ، فإن هناك جوانب أخرى كانت لها آثار سيئة تتجلى فيما أصاب نفوس وتفكير الشباب الغربي من إحساس بالضياع والفراغ الروحي ، وما نتج عن ذلك من ظهور مذاهب عجيبة بين الشباب ممن تاهوا بين التكنولوجيا والعلوم الحديثة التي فاقت ما حققته حتى الآن تصورات الناس ، وبين الجشع المادي الذي تجاوز الحدود الإنسانية . ومن ثم ، فقد بعدت الصلات بين الناس في العالم كله سواء في البلاد المتقدمة أو النامية أو المتأخرة وبين الإيمان بالخالق وتعاليمه التي نزلت في جميع الأديان .

وكل ذلك لا شك مسئول إلى حد كبير عما ظهر أيضاً في العمارة والفنون الحديثة من

اتجاهات ومذاهب تجريدية وتكعيبية وسيريالية وغيرها مما تصل المغالاة فيها إلى حد يجعل من الصعب فهمها وإدراك الأهداف والمعاني التي ترمي إليها . وهي مسئولة أيضاً إلى حد كبير عن ظهور العمارة التي على هيئة علب الكبريت المتراصة مع بعضها أفقياً أو رأسياً وليس فيها من المميزات سوى الفخامة أو تأدية الوظيفة التي أنشئت من أجلها في جفاف وصرامة .

والذي يهمنا من كل تلك الأحداث العالمية هو صداها وانعكاساتها على مكانة وتطور العمارة الإسلامية في الأقطار التي كانت موطناً لها ومعقلاً قبل العصر العثماني وفي أثنائه ، ثم بعد أن تفتتت الدولة العثمانية ، وبعد أن استولت الدول الأوروبية على تلك الأقطار الإسلامية وما تم من توزيعها فيما بينها ، إما باحتلال بعضها عسكرياً أو بإخضاع البعض الآخر لنفوذها السياسي والاقتصادي .

ونتج من ذلك كله أن تدفقت التيارات والمذاهب الأوروبية المعمارية من بقايا عصر النهضة وما بعد ذلك من الاتجاهات الحديثة والأكثر حداثة ، والتي قامت على استخدام الصلب والخرسانة المسلحة والزجاج والمواد الصناعية ، وأخذ يزداد تدفقها نحو أقطار العالم الإسلامي ، إما عن طريق المعماريين من أصحاب وأتباع تلك المذاهب والاتجاهات ، والذين زاولوا تصميم وإنشاء أعمال معمارية في تلك البلاد ، أو عن طريق المعماريين من شباب تلك الأقطار الذين ابتعثوا إلى مواطن تلك المذاهب ودرسوا على أصحابها وتتلمذوا على أيديهم في ألمانيا أو فرنسا أو بريطانيا أو إيطاليا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها ، ثم عادوا إلى أوطانهم وأخذوا يطبقون ما تعلموه ، أو على الأقل ساروا على نفس الدرب ، لا في الأعمال المعمارية التي قاموا بها في حياتهم العملية فحسب ، بل إنهم نشروه أيضاً بين الأجيال التي تتلمذت عليهم ولا زالت ، وأرضعوهم تلك النظريات والاتجاهات وأشبعوهم إياها .

ثم أخذت ترتفع بعض الصيحات المتناثرة منذ عهد قريب في البلاد العربية والإسلامية وتعلو أو تنخفض بين الحين والآخر داعية إلى إحياء التراث العربي الإسلامي . غير أنها لم تسفر عن نتائج جدية ، وكل ما أسفرت عنه أن ندرة من المعماريين العرب والمسلمين الذين أصاخوا السمع لتلك الصيحات أو طلب منهم إضفاء الطابع الإسلامي على بعض إنتاجهم ، قد بذلوا محاولات في ذلك السبيل ، سواء كانوا من الوطنيين أو الأجانب ، إلا أنهم لم يوفقوا في كثير من محاولاتهم ولم يحرزوا نجاحاً مذكوراً اللهم إلا في إنتاج مزيج من نوع آخر يشبه في طريقة تكوينه المزيج العثماني الذي سبق شرحه ، إذ قام المزيج الجديد على أساس الاتجاهات والمذاهب الحديثة التي تتراوح درجة نقائها مختلطة ببعض العناصر والتفاصيل المعمارية والزخرفية ذات الأصل الإسلامي ، منها على سبيل المثال : العقود المدببة والبائكات والقباب ومنها الأعمدة والزخارف وغيرها . أما اللب والجوهر فهو أبعد ما يكون عن تلك الأصول المعمارية الإسلامية ، بل إنه ليعد نموذجاً للاتجاهات العالمية ، وبذلك ينطبق عليه المثل المعروف وهو : « لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبق » .

ونتيجة لتلك المحاولات غير الناجحة تماماً فقد انبعثت تساؤلات عن حال العمارة الإسلامية وعما إذا كان قد قدر لها أن تستمر مضمحلة متوارية في زوايا التاريخ ، أم أن هناك أملا في أن تعود أسسها أو تقاليد منها على الأقل إلى الحياة والنشاط مرة أخرى في الحاضر والمستقبل ، وبحيث تؤدي للناس من الشعوب العربية والإسلامية حاجاتهم ومطالبهم في العصور الحديثة مع ما ظهر ويظهر من الابتكارات التكنولوجية وطرق وأساليب البناء مثلما وفرتها لهم طوال العصور السابقة .

ومما لا شك فيه أن الناس لهم كل الحق في ذلك التساؤل أمام ما يرونه من التحديات والتيارات الجارفة المتدفقة من الغرب ومن الدول التي أصبحت تقود العالم في أكثر نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية وغيرها ، وحتى العرب والمسلمين أنفسهم قد جرفهم ذلك الخضم من تلك التيارات الجارفة والتي تسللت إلى الكثير من نواحي حياتهم ومعيشتهم واقتصادياتهم ، ومن النواحي الحضارية المركبة والمعقدة التي تتزايد في سرعة رهيبة ، بل وفي قفزات لا تترك فرصة للتفكير في المثاليات أو حتى في المطالب الواقعية ، فكأنهم يعيشون في دوامات وأعاصير ، وبخاصة في الوقت الذي يتقارب الناس فيه في أقصر الأوقات لسهولة المواصلات التي تجعل التيارات العالمية تنتشر على أوسع نطاق وتمس العالم كله .

وقد يسارع بعض الناس من الطبقات الخاصة والعامة بل ومن المعماريين أنفسهم إلى الإجابة بأن العمارة الإسلامية لم تعد أمامها فرص في الحياة أو في عودة الروح إليها مرة أخرى . وقد تبدو هذه الإجابة صحيحة لمن يظن أن العمارة الإسلامية تتمثل فقط في أشكال قباب أو مآذن أو عقود أو أعمدة أو غيرها من التفاصيل أو الحليات أو الزخارف المعمارية التقليدية ، وهو ظن خاطئ بغير شك ، وقع فيه من قبل المستشرقون من الرواد الأوائل الذين أقدموا على دراسة العمارة الإسلامية وأصولها ، مع أنهم لا يعلمون إلا النادر القليل عن مفهوم العمارة بوجه عام والإسلامية وأسسها وقواعدها بوجه خاص . ووصلوا بمعلوماتهم الواهنة هذه إلى أن العرب لم تكن لهم دراية بالعمارة ، ولم يكن لهم دور في بداية تكوينها في العصور الإسلامية المبكرة ، لأنهم اعتمدوا على عناصر وتفاصيل وزخارف من طرز سابقة ومعاصرة وألبسوا بها مساجدهم وقصورهم وعمائرهم الأولى ، وهي آراء ونظريات أثبتنا فسادها بعد التشريح والتحليل وذلك في المجلد الأول من كتابنا : « العمارة العربية في مصر الإسلامية » ، ثم زدنا الكثير من ذلك في الجزء الأول من كتابنا « العمارة العربية في العالم الإسلامي » وهو على وشك الصدور .

وفي رأينا أن تلك الإجابة متسرعة إلى حد كبير ، فإن الأمر يحتاج إلى حيثيات وأبحاث مستقاة من دراسات متعمقة تعتمد على العرض والتحليل والاستنتاج الهادئ غير المتحامل . بينما

لم يعن أصحاب تلك الإجابة ، وبخاصة من المعماريين من العرب والمسلمين ، بالقيام بدراسات تذكر في هذا السبيل ، ولم يبذلوا جهداً جدياً في التعرف على أسس ومفاهيم وتقاليد العمارة الإسلامية ، بل اكتفوا هم وأساتذتهم من دراسة العمارة الإسلامية بقشور سطحية ولمحات عابرة ضمن مناهج تاريخ العمارة العام ، ثم جرفتهم التيارات والمذاهب المعمارية الحديثة من ناحية ، كما جرفتهم مطالب الحياة والكد في سبيل الحصول على الأرزاق من ناحية أخرى .

وفي اعتقادنا أنه سيساعد إلى حد كبير على الإجابة على ذلك التساؤل الخلاصة التي شرحناها في الفصول الأربعة السابقة في إيجاز شديد بقدر ما وسعنا الجهد لمراحل تطور العمارة العربية الإسلامية على مدى القرون الثلاثة عشر التي مرت عليها ، وفي الأقطار التي وحّدها الدين الإسلامي واللغة العربية ، وعلى الرغم مما حدث لها في تلك الفترة وما وقع فيها من أحداث سياسية تفككت عرى الروابط بينها في أثنائها ، وكان من أخطرها وأكثرها حرجاً ، المرحلة الأخيرة منها ، وهي تكوين وقيام الدولة العثمانية وانتشار نفوذها على رقعة كبيرة من الأرض ، والتي أعقبتها مرحلة تالية أكثر خطورة وأبعد أثراً ، تعرضت فيها العمارة العربية الإسلامية ، كما أشرنا منذ قليل ، لتلك الزلزلة العنيفة التي نتجت من تتابع أحداث عالمية طغت على العالم كله ، ولم يقتصر طغيانها على البلاد العربية والدولة العثمانية وحسب ، بل أخضعت طرز العمارة العالمية في أوروبا وأمريكا وتقاليدها لنفوذها ، وبخاصة في الوقت الذي وصلت فيه العمارة العربية الإسلامية في أواخر القرن ١٢ هـ (١٨ م) وأوائل التالي له إلى مرحلة كانت تتكون فيها من ذلك المزيج المتنافر الذي شرحناه في الصفحات السابقة ، وذلك على الرغم من ومضات حاول فيها المعماريون من محليين وغربيين محاكاة رواسب من العمارة العربية الإسلامية ، بعضها ما تزال به ملامح من التقاليد الأصيلة ، وبعضها تبدو فيه بقايا عثمانية ، ولكن مع تصرف في التصميمات والتكوينات والتفاصيل في حرص أحياناً ، وفي مغالاة أو عدم فهم في أكثر الأحيان .

وكل ذلك يتضح جلياً في البلاد التي احتلتها كل من فرنسا وانجلترا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أي الشام ومصر وشمال إفريقية ، وهي محاولات نبتت وسط إنتاج معماري ضخم قام على مذاهب معمارية حديثة وعلى اتجاهات فردية أو جماعية .

والحق أنه لو عنى عناية كافية بتتبع ما في أمثلة ذلك الإنتاج المعماري التي شيدت على المذاهب الحديثة ، واستكشاف ما فيها من إمكانات تساعد على إحياء الطابع العربي الإسلامي لوضحت لنا معالم وملامح من ذلك الطابع في بعض تلك الأمثلة من العمائر الحديثة ما كانت لتتضح للنظرات العابرة أو للأذهان التي لا تتصور أن توجد علاقة ما بين تلك التصميمات التي تطرف بها أصحابها إلى البعد عن التقاليد الكلاسيكية وعلى قطع علاقتهم بها وبين ما يتصل بالعمارة الإسلامية .

ومما يدعو للعجب حقاً أن بعضاً من ذلك الإنتاج الجديد يحمل ملامح ومعالم من ذلك الطراز الشرقي الذي يظن أهله أنه قد اندثر وراح في زوايا النسيان . وتتضح تلك الملامح والمعالم إما في التكوينات عامة أو في التفاصيل أو فيها كلها مجتمعة ، حتى ليمكن القول بأن ذلك قد حدث بتأثير مباشر أو غير مباشر من لمحات أو اطلاعات عابرة أو مدققة على آثار قائمة أو منشورة من العمارة العربية الإسلامية ، أو أنها قد حدثت عن طريق الصدف البحتة .

وأشرنا من قبل إلى اتجاه المعماريين نحو التخلص من قيود العمارة الكلاسيكية وما كانت تفرضه عليهم من تفاصيل وعناصر اهتزت مكانتها بعد انتشار أساليب البناء بالمواد الإنشائية المستحدثة ، وبخاصة استعمال الصلب ثم الخرسانة المسلحة والزجاج وغير ذلك ، وإلى أن ذلك الاتجاه قد بدأ في الوضوح من قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان من أول روادها المعماري فرانك لويد رايت ، كما أشرنا إلى تأثيره العظيم على المذاهب المعمارية الحديثة التي أخذت في الانتشار منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى وأخذت في الازدهار قبيل الحرب العالمية الثانية ثم من بعدها وحتى وقتنا هذا .

وقبل أن نستطرد في تتبع تلك التيارات والأحداث المعمارية الحديثة وبخاصة تلك التي تعكس ملامح ومعالم من العمارة العربية الإسلامية تجدر الإشارة إلى محاولات عاصرت بداية جهود المعماري فرانك لويد رايت قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، ومنها مثل لمبنى مصنع صممت كتلته المعمارية على شكل عقد مدبب فاطمي صريح يتجلى في خطوط واجهته الرئيسية (ش : ٢٣٠)[٩] ولا يمكن بأي حال من الأحوال الخطأ في وضوح العلاقة الوثيقة بين تلك الخطوط وبين ذلك النوع من العقد الذي يتكون من قوسين صغيرين وماسين لهما يلتقيان في نقطة هي قمة العقد (ش : ٢٢٢) والذي يوجد أقدم مثل له في الجامع الأزهر ، والفارق الوحيد بينهما والذي يغفل النظر عنه لأول وهلة أن ذلك الشكل العربي الإسلامي يحدد فراغاً في البناء بينما استعمله المعماري ليحدد به الكتلة المعمارية كلها (form) لذلك المصنع الألماني وهو المعماري والتر جروبياس (Walter Gropius) ، وتم بناؤه في عام ١٩١٤ م ، أي في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وبدأت فيها محاولات فرانك لويد رايت لوضع أسس العمارة الحديثة والتي قام عليها صرح المذاهب والاتجاهات الجديدة التي تتابعت حلقاتها في فترة ما بين الحربين العالميتين وحتى وقتنا الحاضر . وكان من روادها ذلك المعماري بل كان من مؤسسي إحدى مدارسها وهي « الباو هاوس » التي سلف ذكرها ، ولكننا في الحق لا ندري إن كان قد استوحى لذلك المبنى شكله المبسط وخطوطه الخارجية من ذلك النوع من العقود العربية الإسلامية والذي أسبغ على المبنى تلك السمات التجريدية ، وهي من الاتجاهات المعمارية الحديثة ، أو أن ذلك الاتفاق قد جاء صدفة غير مقصودة . ومهما يكن من أمر ، فإن الذي يهمنا من الموضوع هو أن نرى المدى الذي يمكن أن تسهم به عناصر عربية إسلامية في إنتاج أشكال وكتل معمارية وتصميمات تعد من العمارة الحديثة الغربية التي نسعى إلى محاكاتها في بلادنا في زمننا هذا .

ش : ٢٣٢ ــ روما ، المدينة الأولمبية

شريحة

وهناك مثل آخر فيما قام به المعماري الألماني هانز بولزج (Hans Poelzig) وهو تصميم سقف وجدران قاعة عظيمة الاتساع مستديرة الشكل للمسرح الكبير في برلين في سنة ١٩١٩ م لتتسع لنحو ٥٠٠٠ متفرج (ش : ٢٣١)[٢]، وقام تصميم السقف والجدران على استخدام صفوف من حنيات وفراغات ذات عقود متتالية تعكس تفكيراً معمارياً ناضجاً من حيث عمل الحلقات الواطئة أو المنخفضة من تلك العناصر ذات مقياس صغير ، ثم يزيد مقياسها كلما ارتفعت الطبقات فوق بعضها البعض ، الأمر الذي يتمشى تماماً مع نظريات العمارة التي توصي بزيادة أحجام العناصر كلما ارتفع مستواها .

هذا ولا يداخلنا شك في أن المعماري قد تأثر بل اقتبس فكرة تصميمه من المقرنصات الإسلامية مع الالتزام بتجارب ونظريات العمارة الحديثة .

* * *

ويزيد من وضوح موقف العمارة العربية الإسلامية في حاضرها وما ينتظرها في المستقبل إذا ما استعرضنا بعضاً من مشروعات معمارية أنتجها معماريون غربيون وشرقيون من رواد المذاهب الحديثة وتعد من الروائع العالمية ، وفيها لمسات وسمات شرقية بل إسلامية يمكن أن تتضح لمن يعن بتعمق قليل في تحليلها ودراستها .

من ذلك مثلاً ، قصر الرياضة في روما الذي شيد عام ١٩٥٧[٣] ، والذي صممه كل من المعماري « أنيبالي فيتولوتزي » (Annibali Vittolozzi) والمهندس الإنشائي « بيير لويجي نيرفي » (Pier Luigi Nervi) الذي وضع كتاباً عن العمارة الإسلامية ولا نشك في أنها قد تأثرا بطلاوة العمارة الإسلامية وما فيها من آفاق وإمكانات ينتفع بها في العصور الحديثة ، إذ لا يمكن الخطأ في الإحساس بالطابع الإسلامي الذي يتمثل في التكوين الخارجي للقبة

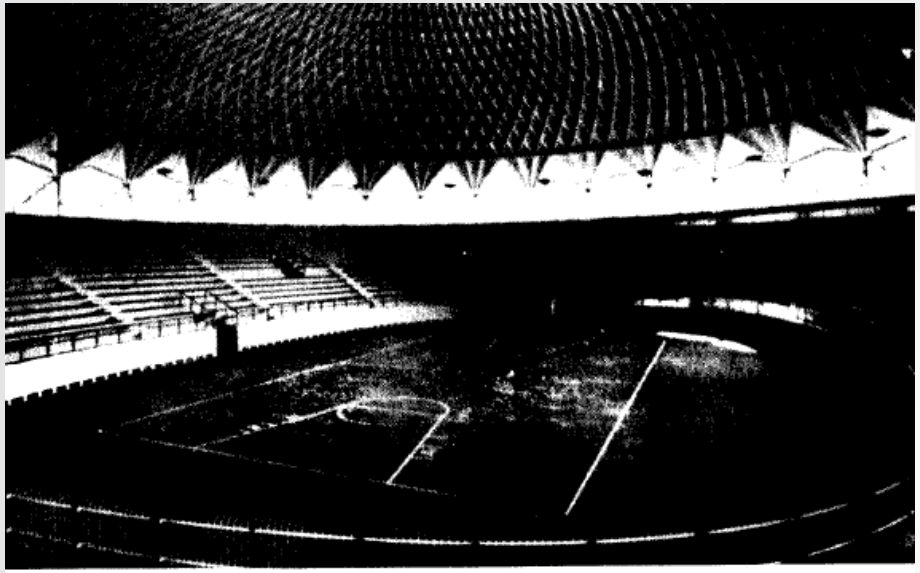

ش : ٢٣٣ ــ روما ، المدينة الأولمبية

شريحة

والأعمدة المائلة التي تحمل القبة وتتلاقى في شبه عقود مدببة مستقيمة الجوانب (ش : ٢٣٢)[٣] ، كما يزداد هذا الطابع وضوحاً في الضلوع المتقاطعة في باطن القبة من الداخل (ش : ٢٣٣) ، فإن ذلك يذكرنا بالضلوع المتقاطعة التي يتكون منها الكثير من القباب الصغيرة في المسجد الجامع بأصفهان (ش : ٢٠١ ـ ٢٠٤) كما يذكرنا بفكرة الضلوع المتقاطعة التي شيدت بها القبة الداخلية فوق المحراب في جامع قرطبة (ش : ١٩٠) وفي جامع تلمسان (ش : ١٩١ و١٩٢) .

ثم ينعكس نفس الإحساس مما صممه نيرفي في تكوينات هندسية لتغطية قاعة المعرض الذي أقيم في تورين عام ١٩٤٨ / ١٩٤٩ م (ش : ٢٣٤)[٣] . وقد ساعد إلمام « نيرفي » الواسع بخواص الخرسانة المسلحة على تنفيذ أفكاره وتصميماته ذات التكوينات الهندسية والمقياس الضخم لعمائر كبيرة الاتساع . ولا نشك والحالة هذه في أنه قد تأثر بدراساته للعمارة الإسلامية والتي وضع عنها الكتاب الذي أشرنا إليه ، ولعل هناك مؤلفات له أخرى عن تلك العمارة الأصيلة . وأنه قد نجح إلى حد كبير في التعبير عن إعجابه بها بالمواد الحديثة ولم يتجه إلى الجفاف والصرامة الواضحين في أعمال غيره من رواد المدارس الحديثة . ومن أعمال هذا المهندس المعماري الإنشائي المشروع الذي أعده للمحطة الرئيسية في مدينة نابولي في عام ١٩٥٤ م وتتكون من قاعة كبيرة مفتوحة ، وتحمل سقفها غابة من الأعمدة والعقود المدببة ذات الجوانب المستقيمة .

كما يقودنا الحديث عن هذا المشروع إلى التنويه بمبنى مطار الظهران الذي اتجه فيه المصمم إلى اقتباس وتطوير فكرة العقود

المتشابكة المدببة (ش : ٢٣٦) مستوحياً إياها من كل من المدرسة الفارسية الإسلامية من حيث شكل العقود وما يعلوها من أسطح كروية ذات ضلوع متقاطعة ، وكذلك من المدرسة الأندلسية من حيث التشابك والتقاطع لضلوع القباب كالموجودة في جامع قرطبة (ش : ١٩٠) . وقد وضع تصميم هذا المطار أحد كبار المعماريين الأمريكيين من أصل ياباني وهو يدعى « يامازاكي » (Yamazaki) . ولكن في رأينا أن تلك الضلوع السطحية ما كان لها داع بل هي مجرد ملصقات لم تزد من الطابع الإسلامي الواضح في تلك العقود والأسطح الكروية .

وذلك والكثير غيره يؤكد الفرص الكبيرة التي يمكن أن يجدها المعماريون المحدثون في نواحي العمارة الإسلامية والاستلهام منها وتطوير مفهوماتها والأفكار المنبثقة عنها واحتمالات النجاح المرتقبة لمحاولات التزاوج بينها وبين المواد وطرق وأساليب البناء والإنشاء في العصور الحديثة .

وهناك مثال آخر لروعة الأفكار الجديدة في التصميم المعماري التي ساعدت على إنتاجها

ش : ٢٣٤ ــ تورين ، قاعة المعرض شريحة

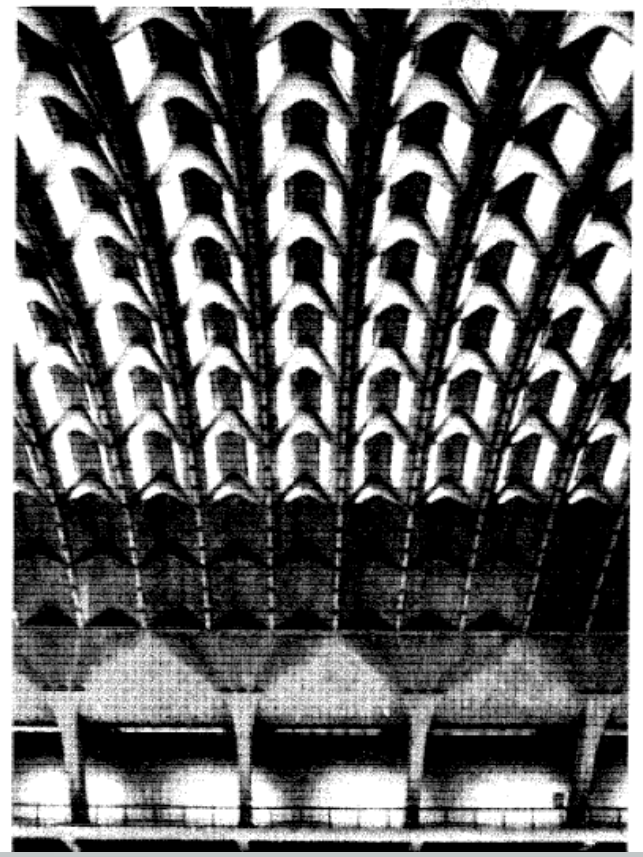

ش : ٢٣٥ ــ مونتريال ، معرض الولايات المتحدة شريحة

تلك الأساليب والمواد الحديثة ، وهو مبنى أوبرا سيدني باستراليا (ش : ٢٣٧)[٥٩] إذ قامت فكرته التي أعدها في أول الأمر المعماري الدانمركي « جورن أوتزن » (Gorn Otzen) على تجميع شرائح كروية متفاوتة الأحجام متلاصقة ببعضها البعض في أسلوب هندسي رائع ، وتمتاز بأن كل شريحة منها قد اكتسبت شكل العقد المدبب ذي الزاوية الحادة عند قمته ، والعقد المدبب كما هو معروف من أعلام العناصر الإسلامية ، وقد أخذ ذلك العنصر في أوبرا سيدني مكانة رئيسية تتناغم وتنسجم مع القطاعات الكروية التي قامت عليها فكرة تصميمه في أسلوب غاية في الجدة والطرافة وليس فيها أي افتعال . غير أننا لا نظن أن ذلك العقد المدبب كان في نية المصمم إدخاله في التكوين المعماري ، بل كان نتيجة غير

ش : ٢٣٦ ــ السعودية ، مطار الظهران الاعلام السعودي

مباشرة لتلك الفكرة المبتكرة التي قامت على القطاعات الكروية . ومهما يكن من أمر ، فإن تلك العقود قد أضفت على المبنى مسحة شرقية بل إسلامية لم تكن مقصودة من المصمم .

ومن المنتجات المعمارية المتصلة بالألعاب الأولومبية ومنها دورة عام ١٩٧٢ م والتي عقدت في مدينة ميونخ بألمانيا الغربية ما ابتكره المهندس « فراي أوتو » (Frei Otto) من قوالب وأشكال لقاعات وملاعب (ش : ٢٤٤ و ٢٤٥) تتكون من مدادات من الصلب تتقاطع وتتلاقى في كرات من الصلب متفاوتة الأحجام وتغطيها أسقف من شبكات تتدلى من النهايات العليا لتلك المدادات والتي تتفاوت أحجامها ومستوياتها مما أنتج قوالب معمارية (Forms) ، كبيرة الشبه بالخيام والسرادقات العربية والبدوية . وأغلب الظن أن مصممها قد استوحى تلك الأشكال والقوالب من الخيام ، وتعمد أن تكون غير منتظمة الأحجام والتوزيعات إمعاناً في تأكيد الروح العربية البدوية ، وأخرج ذلك كله بمواد من أحدث ما أنتجته المصانع من أشكال الصلب واللدائن وغيرها .

وساعد ذلك المهندس مكتب المعماري « رولف جوتبرود » (Rolph Gutbrod) في إعداد

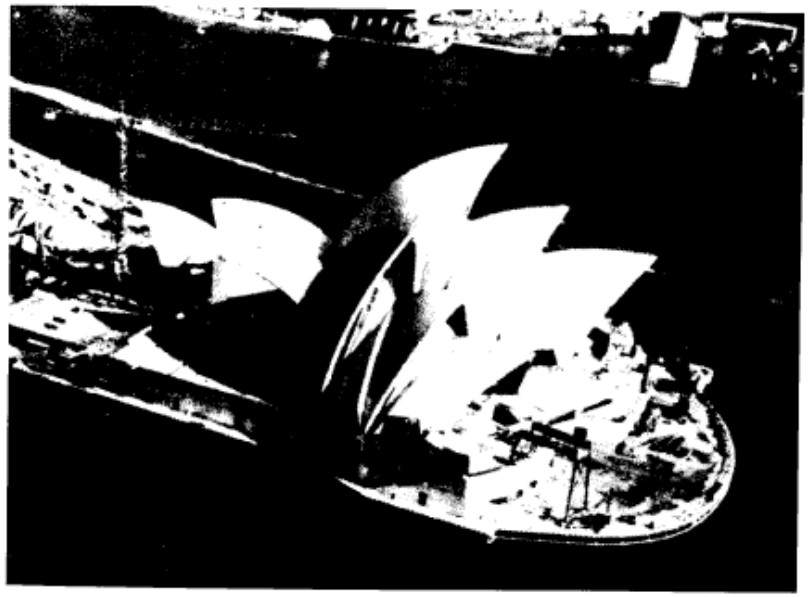

ش : ٢٣٧ ــ استراليا ، دار الأوبرا في سيدني

شريحة

مشروع قاعة المؤتمرات وفندق الانتركونتنتال الملحق بها وتنفيذه على مشارف مكة المكرمة ، وحاولوا استلهام الطابع المعماري الإسلامي (ش : ٢٤٦ ـ ٢٤٨) بتوزيع الوحدات في مجموعات حول عدة أفنية فتتج منها ما يشبه الواحة التي تتخللها المياه والأشجار ،

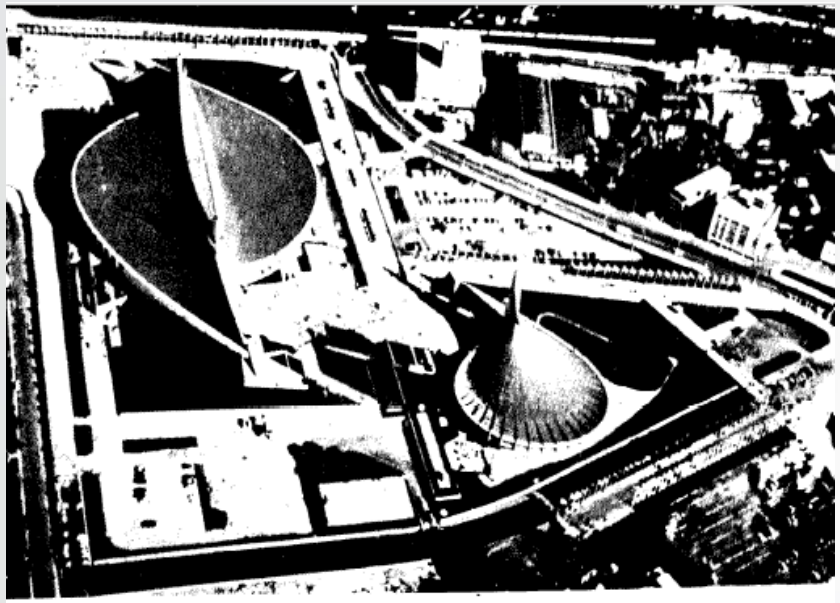

ش : ٢٣٨ ــ طوكيو ، المدينة الأولمبية

شريحة

واستخدمت فيها مظلات من الخشب مستقاة من فكرة المشربيات ، ويرتكز بعضها أفقياً على أسلاك معدنية ، وبعض آخر يرتفع رأسياً . وشيدت الأسقف المقعرة المشيدة بالخرسانة المسلحة مما يضفي عليها منظر الخيام ، إلى غير ذلك من الأفكار التي تتصل بالروح البدوية العربية وبالطابع المعماري المحلي في الجزيرة العربية . غير أن تصميم المسجد الملحق بتلك المجموعة المعمارية يجعل من الصعب فهم وظيفته ، كما أن تضخيم الكتابات الكوفية فيه

ش : ٢٣٩ ــ كوالالامبور ، الجامع الجديد

شريحة

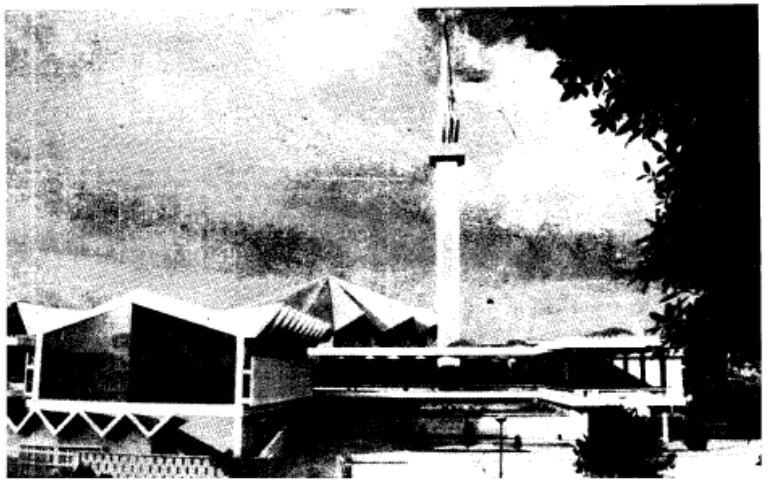

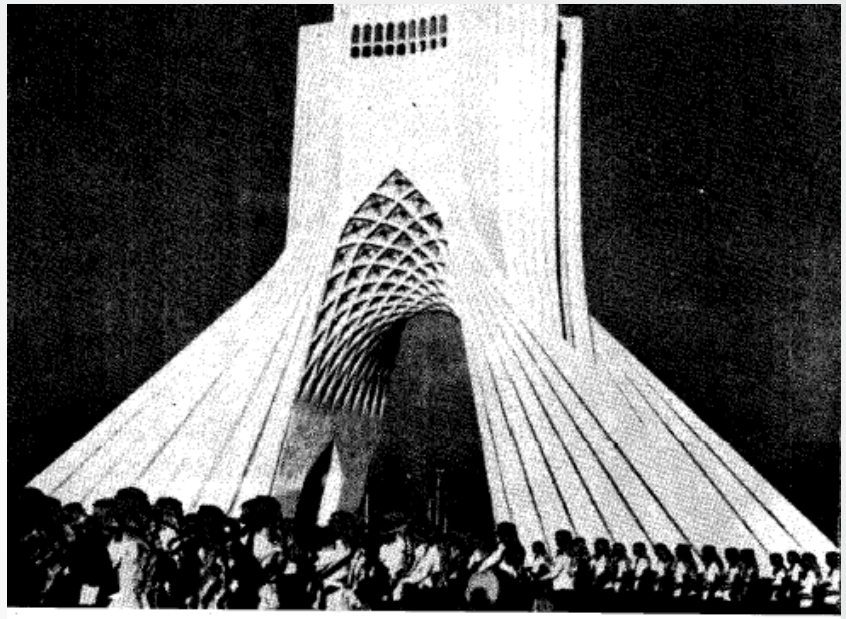

ش : ٢٤٠ ــ طهران ، نصب للشاه رضا بهلوي

الإعلام الإيراني

إلى درجة غير عادية (ش : ٢٤٨) قد أبعدها كثيراً عن الرشاقة والإيقاع الرتيب اللذين امتاز بهما ذلك النوع من الكتابة الهندسية في الطراز الإسلامي .

وحدثت محاولة أخرى في الرياض العاصمة ، وذلك في مشروع مركز المؤتمرات وفندق الانتركونتنتال . فلقد اقتبس المعماري « روبرت دونات » فكرة الفناء الداخلي في الفندق ولكنه ظلله بسقف من الخرسانة المسلحة . ثم أكثر من عمل المسطحات الكبيرة المغطاة بالزجاج ، وذلك في كل من الفندق وقاعة المؤتمرات ، مما أبعد الطابع الإسلامي كثيراً عن المبنى كله . بل إن كثيراً من الناس الذين يمرون على المبنى يستلفت أنظارهم ذلك البرج الصغير الغريب الذي شيد على حافة موقع المركز ويتساءلون عن ماهيته ، وتصيبهم الدهشة عندما يعلمون أنه مئذنة لمسجد المبنى ، وهو مسجد ليس من السهل الاهتداء إليه ، إذ أنه أقرب إلى مبنى للحراسة منه إلى مسجد .

وهناك معماري ياباني هو « كنزو تانجه » (Kenzo Tange) احتل مكانة مرموقة بين مجموعة الرواد الكبار للعمارة الحديثة أصحاب الاتجاهات العالمية التي تتوخى استعمال الأساليب والمواد الإنشائية الجديدة والتحرر من استعمال العناصر التقليدية المعمارية والزخرفية . وقد نال شهرة عالمية ليس فقط لأنه نجح في فهم وتحليل وتطبيق تلك الاتجاهات ، بل أيضاً لأنه نجح في أن يضفي على أعماله طابعاً يابانياً واضحاً لا خطأ فيه .

ومن منجزات هذا المعماري في ميدان العمارة الحديثة والتي شدت الأبصار إليه الملعبان اللذان صممهما للدورة الأولومبية في دورة طوكيو عام ١٩٦٤ م (ش : ٢٣٨)[٩] ، فإنهما يمثلان النجاح الذي أحرزه كنزو تانجه ولم

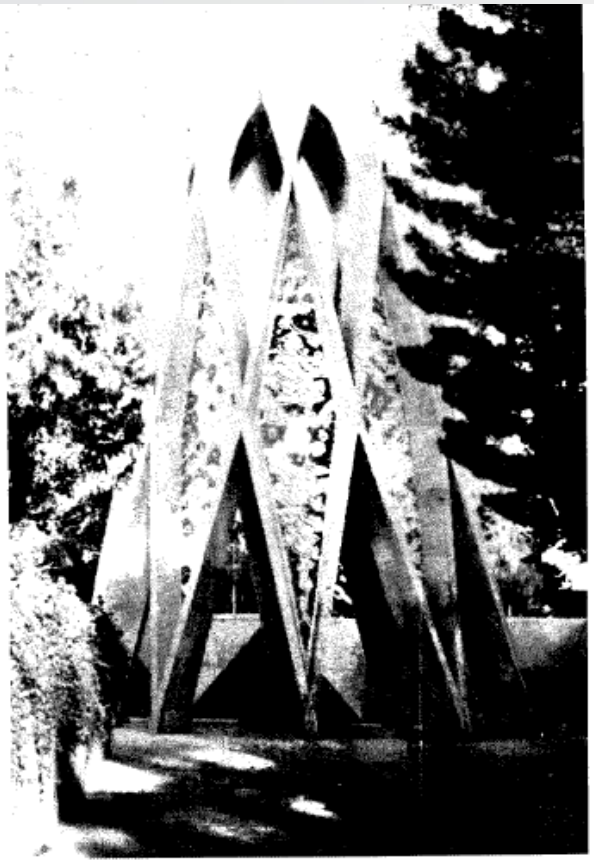

ش : ٢٤١ ــ طهران ، نصب للشاعر عمر الخيام

الاعلام الايراني

يصل إليه لوكوربوزييه فيما قصده من استلهام روح العمارة اليابانية في مبنى دير « لا توريت » (La Tourette)[١٠] في فرنسا ، وتم بناؤه في عام ١٩٦٠ ، مما يدل على أن البيئة تساعد المعماريين المحليين كثيراً على تفهم الروح المحلية في العمارة والفنون أكثر من غيرهم ، ومما يبشر بنتائج طيبة إذا ما حاول العرب المسلمون استلهام روح وأصول العمارة الإسلامية .

بل إننا لا نتمالك أنفسنا من الإحساس بروح عربية إسلامية تبدو في استحياء في مبنى الولايات المتحدة الأمريكية الذي شيد في معرض مونتريال بكندا في سنة ١٩٧٦ م وفي اعتقادنا أن من يتأمل في التكوين العام لذلك المبنى (ش : ٢٣٥)[١١] وهو على هيئة شبكة من كرة ناقصة ، ستكشف له قربها في الشبه من القباب البصلية الإسلامية التي أشرنا إليها في صفحات سابقة (ش : ٢١٥ و٢١٦) ، والتي كانت منتشرة في شرق العالم الإسلامي . ومن ناحية أخرى ، وبالإضافة إلى التكوين العام ، فإن ذلك الإحساس يزداد مع التكوينات من الأشكال الهندسية من المثلثات التي تألفت منها تلك الشبكة .

ويستحق المعماريون الإيرانيون أن نشير إلى بعض جهودهم في التوفيق بين المذاهب المعمارية الحديثة وبخاصة ما يتعلق بالقالب (Form) وبين الطابع الإسلامي ، ونراهم قد نجحوا في ذلك إلى درجة تستحق الذكر . ويتضح ذلك في النصب التذكاري الذي أقيم بطهران تخليداً لذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الدولة الفارسية (ش : ٢٤٠)[١٢] . ولا يتسع المجال للإسهاب في شرح المحاولات الناجحة في هذا المبنى من داخله وخارجه . ولا يحضرنا للأسف اسم المعماري الذي وضع تصميمه ، كما يضاف إلى ذلك النصب الصغير لعمر الخيام (ش : ٢٤١ و٢٤٢) الذي أقيم أيضاً في طهران .

كما يستحق المسجد الجديد في كوالا لامبور (ش : ٢٣٩)[١٣] الإشادة بالنجاح الذي وصل إليه مصممه ، وكان قد أتم دراسته بمدرسة العمارة بلفربول ، ويبدو أنه أعد التصميم لينال به درجته الجامعية وحظيت بزيارة منه بجامعة القاهرة لما علمه من تخصصي ، وعرض عليّ تصميمه الذي يسرني أن أراه قد بلغ هذه الدرجة من النجاح بعد تنفيذه .

والحق ، إن هناك من الأمثلة الكثيرة من هذا القبيل مما مر علينا في أثناء دراساتنا واطلاعاتنا ومما لم يتسنى لنا الاطلاع عليه بعد . ولكننا على كل حال نرى أن الأمثلة التي ضربناها فيها ما يكفي للإقناع بأن العمارة العربية الإسلامية فيها من الحيوية الدافقة وبخاصة في جوهرها ولبها وروحها وطابعها ما يجعلها أصلح ما يمكن للتطور والتمشي مع أحدث النظريات

ش : ٢٤٢ ــ طهران ، نصب للشاعر عمر الخيام

الاعلام الايراني

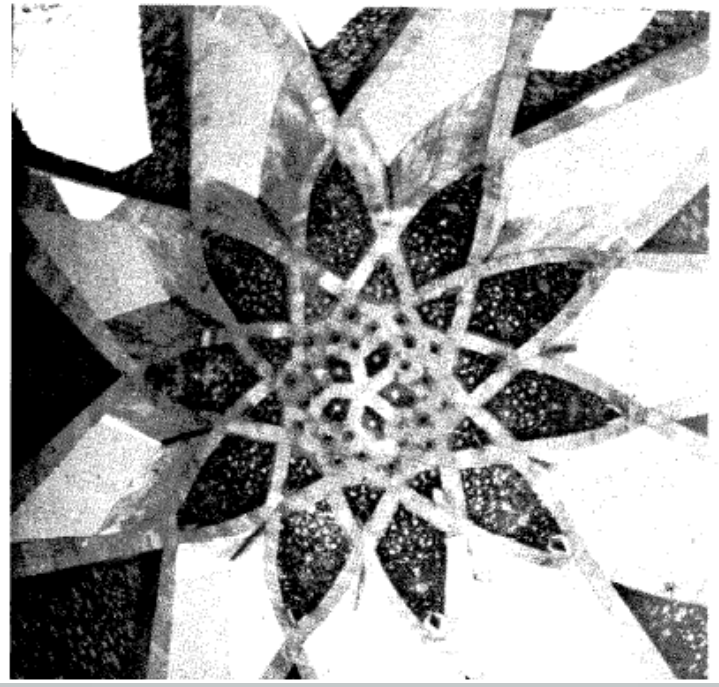

والاتجاهات الجديدة والمتجددة في الحاضر والمستقبل ، بل ويجعلها مصدر إلهام بإنتاج معماري غاية في الطلاوة والطرافة والجدة إذا ما طرحت جانباً تلك الفكرة الخاطئة التي تسيء إليها والتي تحصرها في ذلك النطاق الضيق من القشور التي تتألف من العناصر والتفاصيل الزخرفية الصغيرة التي لم يعد لها مكان بل ولا طعم .

وعلى ذكر الخيام البدوية ، فإني لا أجد بأساً من التنويه بمحاولة لي وأنا أعد تصميم مسجد كلية الهندسة بجامعة الرياض (ش : ٢٤٩ ـ ٢٥٢) ، فقد عمدت في تصميمه إلى تجنب استعمال العناصر المعمارية الزخرفية التي يظنها الناس من خصائص العمارة العربية الإسلامية التي لا يستغنى عنها في إظهار الطابع الإسلامي مثل المقرنصات والمسطحات الممتلئة بالزخارف الهندسية والنباتية والكتابات

شريحة

ش : ٢٤٣ ــ ميونخ ، الدينة الأولمبية

الكوفية والإطارات والمشبكات والطنف والشرافات التي تتوج الأطراف العليا من العمائر وغيرها .

وقد أوحت إلى الخيام العربية (ش : ٢٥٤) بأن اقتبس خطوطها الخارجية

ش : ٢٤٤ ــ ميونخ ، الدينة الأولمبية

شريحة

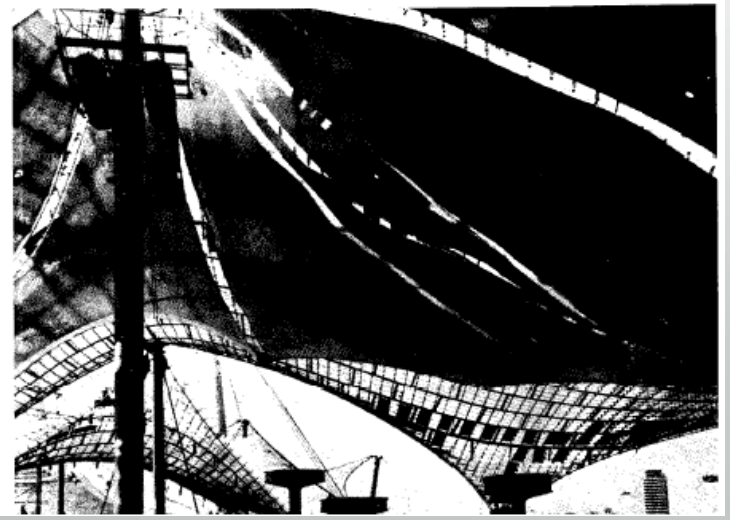

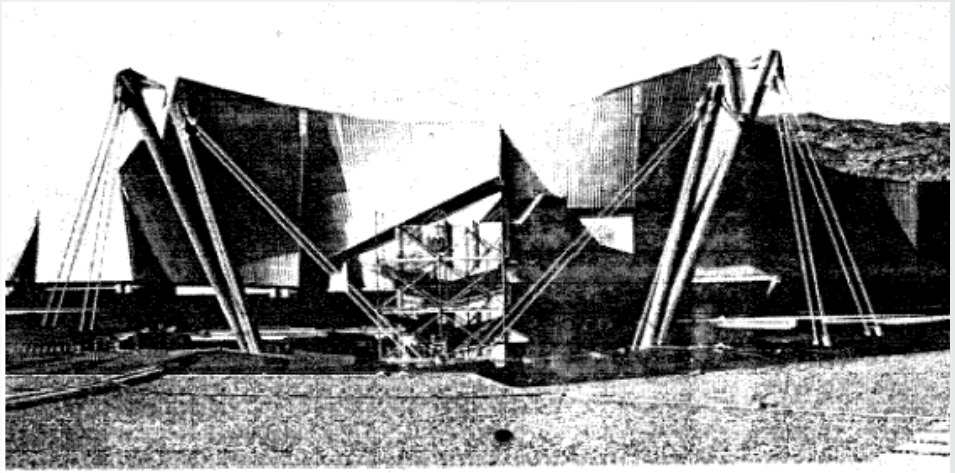

ش : ٢٤٥ ــ مكة المكرمة ، مركز المؤتمرات

كتيب ــ جوث بروت

ولكن بعد عملها مستقيمة بدلا من مقوسة . غير أن بعض الناقدين قد ترجوا عمل تلك الخطوط المستقيمة للخيمة البدوية بأنها كنائسية المنظر ، وهو نقد وجه إليّ أيضاً في تصميم قبة المسجد مع أنني قد استوحيته من شكل عمامة

رجال الدين في الأقطار الشامية الشقيقة (ش : ٢٥٥) وهو يمت بشبه بعيد يشكل قلنسوة قساوسة بعض المذاهب المسيحية ، والذي نرجح أن يكون قد اقتبس من رجال الدين من المسلمين الشاميين الذين كانت

ش : ٢٤٦ ــ مكة المكرمة ، مركز المؤتمرات

كتيب ــ جوث بروت

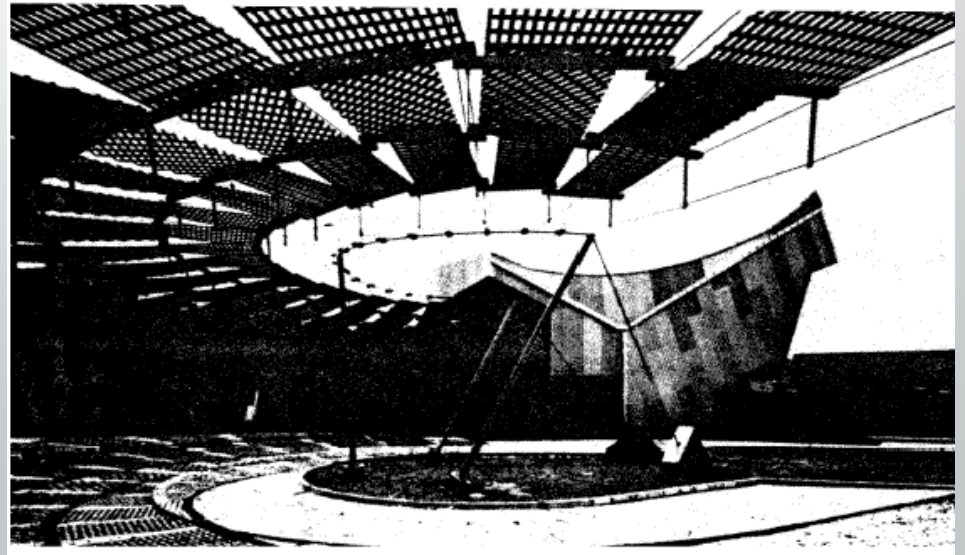

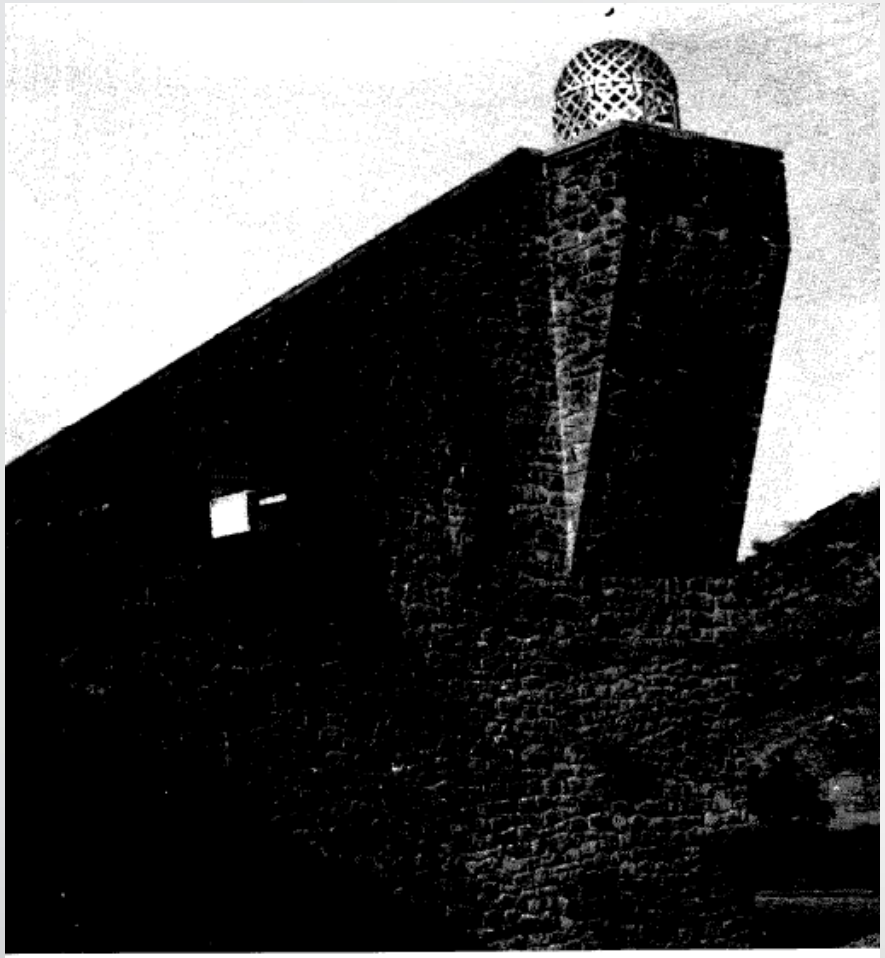

ش : ٢٤٧ ــ مكة المكرمة ، مركز المؤتمرات ، المسجد

كتيب ــ جوث بروت

منطقتهم الميدان الرئيسي للحروب الصليبية فترة تزيد على قرنين ، كان المسيحيون فيها على صلة وثيقة بأهل تلك البلاد وبعاداتهم وبتقاليدهم وشرحنا في عدة مواضع سابقة الكثير من الخصائص والظواهر المعمارية العربية الإسلامية التي من المؤكد أن يكون الصليبيون قد حملوها معهم مع عودتهم إلى بلادهم على أيدي المشتغلين بالعمارة والفنون وكانوا ضمن الجيوش

الصليبية ، وكان من البدهي أن يكون ضمن تلك الجيوش الكثير من رجال الدين المسيحي لما كانوا يقومون به من أدوار هامة في إشعال حماس الجند الصليبيين ، ولا بد أن يكونوا قد احتكوا بدورهم بالشاميين ومن المرجح أنهم اقتبسوا أيضاً بعض التقاليد الحضارية ومنها لباس الرأس وأشكال الزي الأخرى وغيرها . غير أن الناقدين من الزملاء قد انطبعت في

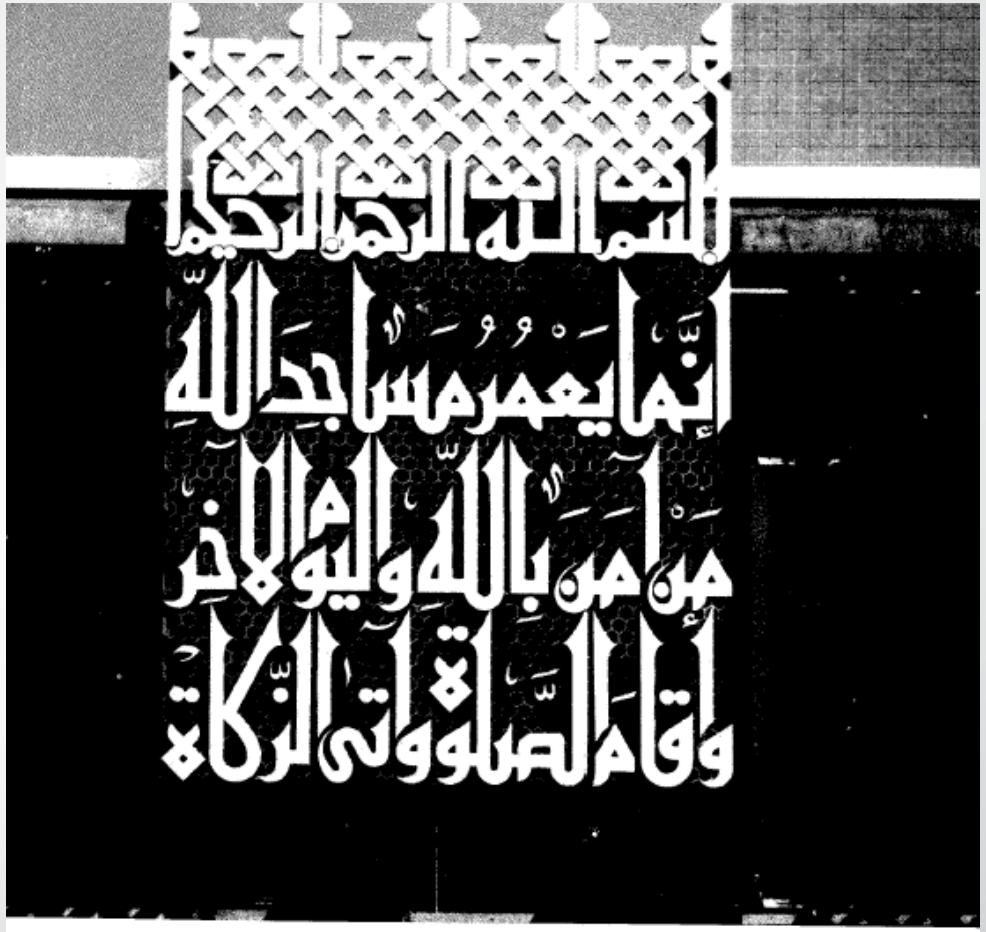

كتيب ـ جوت بروت

ش : ٢٤٨ ـ مكة المكرمة ، مركز المؤتمرات ، الكتابة الكوفية

أذهانهم أشكال قلنسوات القس في أثناء الفترة القصيرة التي قضوها في بعثاتهم أو أسفارهم في البلاد الغربية ، ولم يذكروا الأشكال الإسلامية المتوفرة في أوطانهم الأصلية .

وحدث نفس الشيء في تقدهم للنافذة النجمية في جداري الإيوانين اللذين يتكون منهما ومن الدرقاعة التي تتوسطهما ويتكون منهم تصميم المسقط كما سيأتي شرحه ، نقول إن تلك النافذة النجمية لم يذكر الزملاء الناقدون سوى أنهم رأوها فوق المداخل الجانبية والرئيسية للكنائس ونسوا الأصل الإسلامي لها والذي يتمثل في الكوى المفتوحة أو في السرر المستديرة المزخرفة والتي كانت تعلو أهم عنصر معماري في المساجد وهو المحراب ، وهو تقليد كان وما يزال شائعاً في مساجد الشام ومصر منذ العصر

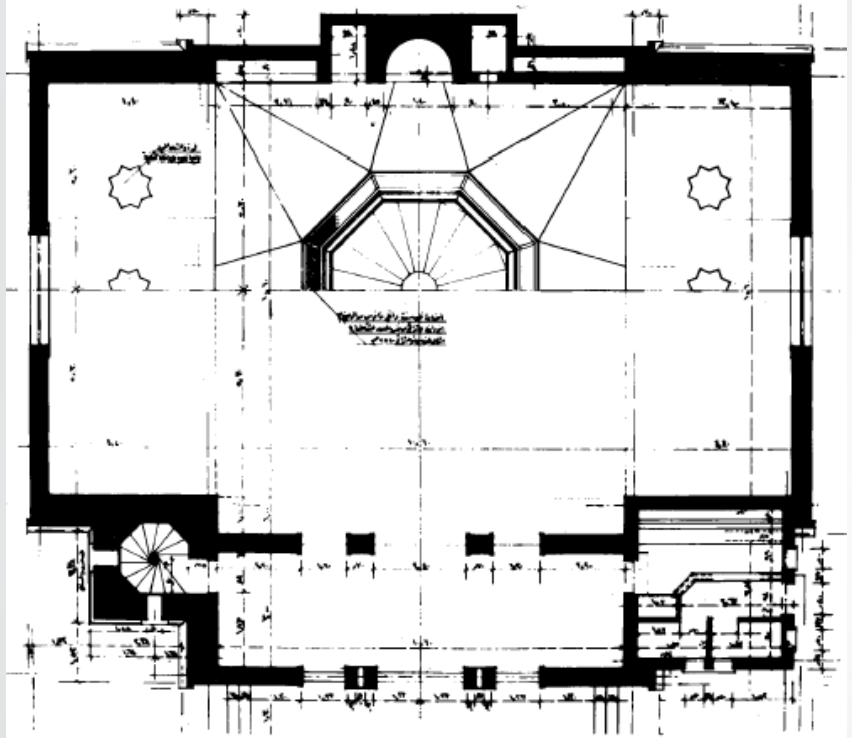

شافعي

ش : ٢٤٩ ـ الرياض ، مسجد كلية الهندسة ، مسقط

الفاطمي وما بعده وفي أغلب أقطار العالم العربي الإسلامي . وكانت تلك الكوى المفتوحة تملأ بالشمسيات ذات الفراغات المغطاة بالزجاج الملوّن والتي اقتبسها الأوروبيون أيضاً لملئ الكوى الدائرية فوق مداخل الكنائس ، واستخدموا في ذلك الحجر والجص المفرغ والزجاج الملون على نفس الأسلوب الإسلامي ، ثم طوروها إلى الشمسيات ذات الزجاج الملون المعشق بضلوع الرصاص الرفيعة .

ومن المؤسف ، أننا إذا استخدمنا ما ابتكره أسلافنا وأخذه الغير عنهم ، نسبه مواطنونا إلى ذلك الغير وليس إلى أصحاب الفضل فيه الأصليين .

وحدث مثل ذلك في موضوع العمارة الحديثة التي نشرها الرواد من المعماريين العرب والمسلمين بين شعوبهم وأرضعوها للطلاب الذين تلقوا العلم عنهم وجعلوها تطغى على العمارة العربية الإسلامية وقطعوا كل صلة لهم بها اللهم إلا بعض القشور التي أشرنا إليها ، أما الجوهر واللب والأصالة فقد طرحوها في مجاهل النسيان ولم يعودوا ينظرون إليها إلا من خلال منظار غربي مسيحي ، هذا في الوقت الذي بدأ المعماريون الغربيون يتخبطون في تلك المجاهل وينبشون وهم في شبه ظلام عن بعض المعالم التي يمكن لصقها على تصميماتهم لتكتسب في رأيهم طابعاً عربياً إسلامياً ، هذا إذا طلب

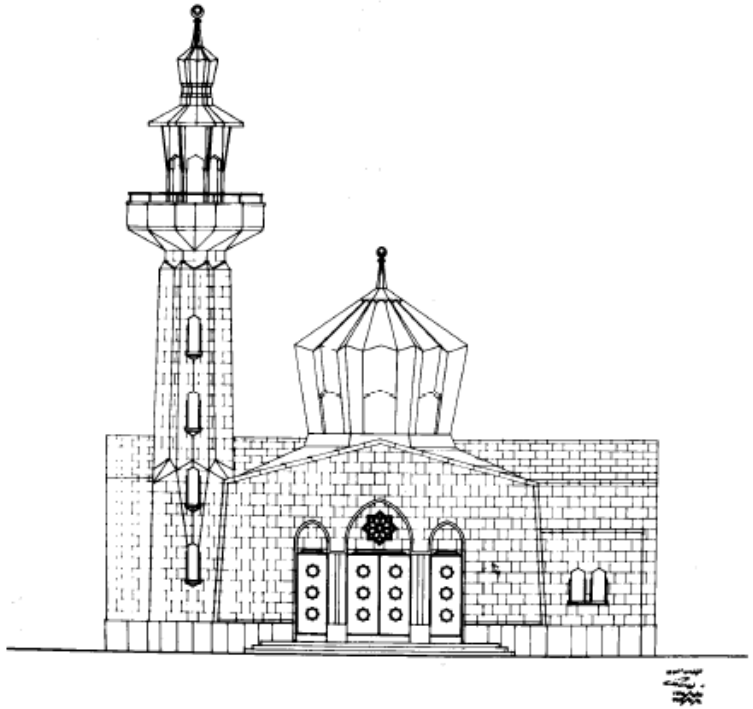

ش : ٢٥٠ ــ الرياض ، مسجد كلية الهندسة ، واجهة

شافعي

أو فرض عليهم ذلك .

* * *

ونعود لنتابع حديثنا عن تصميم المسجد وتوضيح نقاط أخرى هامة ما زالت في حاجة إلى جلاء ، منها أنني لم ألجأ في تصميم الكتل المعمارية وتفاصيلها إلا إلى الخطوط المستقيمة والمنحنية والمتكسرة ، وإلى المستويات الأفقية والرأسية والمائلة ، والتي ساعدتني على تصورها وإخراجها تجاربي الطويلة ومعلوماتي التي توفرت لي من دراساتي ومن خبراتي العلمية والعملية عن الهندسة الوصفية التي برع فيها أسلافنا من المعماريين والحرفيين العرب المسلمين دون أن يتلقوا علومها في جامعات .

وأردت من محاولتي هذه أن أبرهن على أن تلك العناصر ما هي إلا قشور أو ثياب خارجية إذا نزعت فإنها لا تؤثر على جوهر ولب العمارة العربية الإسلامية وطابعها الأصيل ، وأنه من السهل التعبير عنه في قالب بعيد عن الحركات المعمارية المفتعلة والتي يتبعها هذه الأيام من لم يُعن في رأيي بدراسة العمارة الإسلامية دراسة جدية عميقة ، ولم يأخذ منها سوى تلك القشور التي ألبسوها لما يظنونها عمارة حديثة .

كما هدفت من محاولتي أن لا ألتزم بتلك المظاهر الكلاسيكية ، وأن أخطو خطوة في سبيل تطوير العمارة العربية الإسلامية إلى مراحل مستحدثة تتمشى مع التيارات الحالية

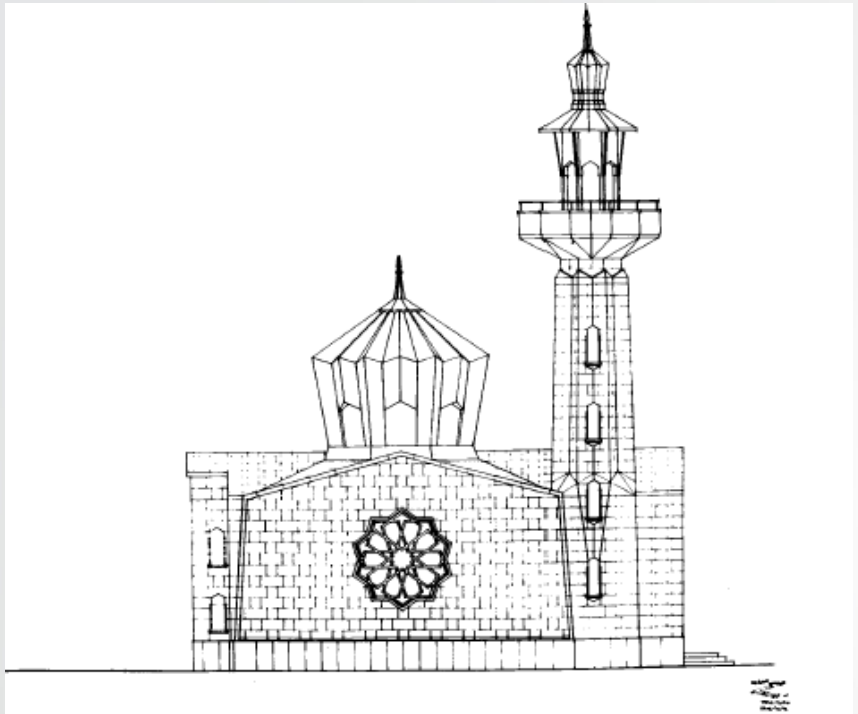

ش : ٢٥١ ــ الرياض ، مسجد كلية الهندسة ، واجهة

شافعي

من البساطة واستخدام المواد الحديثة ، وأرجو أن يتلو خطوتي هذه خطوات من الزملاء ومن أبنائنا من المعماريين المحدثين في الحاضر والمستقبل ، وأن تكون جهودهم أكثر نجاحاً مما وصلت إليه بمحاولتي هذه .

ومن المؤسف أيضاً أن الزملاء الذين تطرقت إلى أذهانهم تلك الأفكار وربما كان منهم من نقلها إلى مصادر عليا وبعض المسئولين ، قد انتقدوا تصميم مسقط المسجد على أنه على شكل الصليب الذي شيدت عليه بعض الكنائس أو أغلبها في العصور الوسطى . وأطلق المستشرقون اصطلاح المسقط الصليبي على نموذج المسقط ذي الصحن والإيوانات الذي شرحنا من قبل بأنه انتشر لتخطيط المدارس والمساجد والمارستانات والخانقاوات ، وسميناه نحن إما بالنموذج السني أو بالنموذج ذي الإيوانات ، وذلك تحاشياً للتسمية المضللة التي هدف بها المستشرقون إلى الإيحاء بوجود علاقة بين ذلك التخطيط الإسلامي الصميم وبين الصليب المسيحي ، وهو توجيه لا شك بعيد كل البعد عن الأمانة العلمية ، أوقع تحت تأثيره الكثير ممن له دراية بتاريخ العمارة فكيف بمن لم يدرس ذلك العلم .

ومهما يكن من أمر ، فإن مسجد الكلية هذا قد اقتبست تصميم مسقطه من القاعة العربية الإسلامية الصميمة التي تتبعنا في

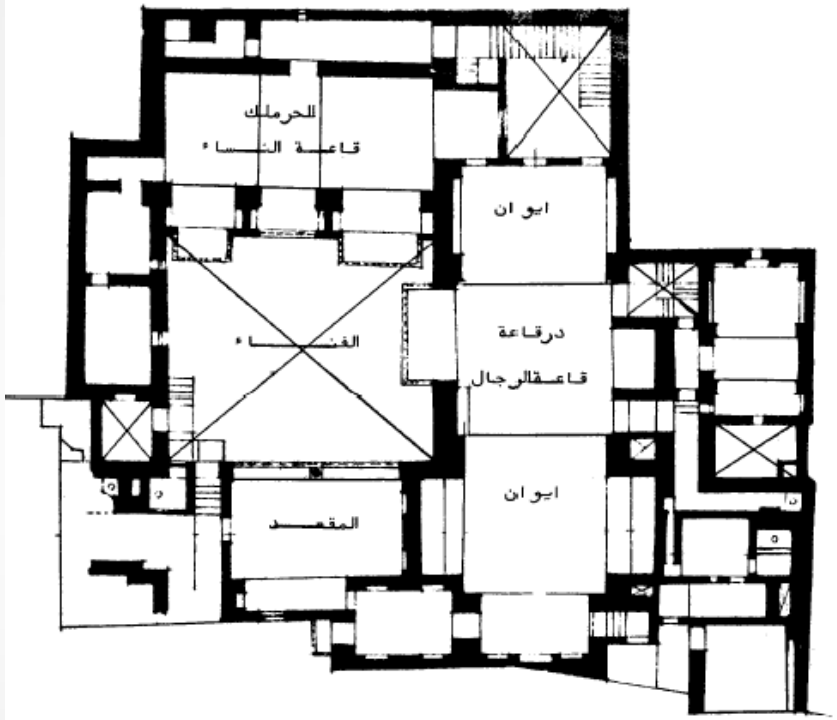

لجنة حفظ الآثار العربية

ش : ٢٥٢ ــ منزل زينب خاتون

صفحات سابقة تطوراتها منذ بدايتها وظهورها في قصر الأخيضر في العصر العباسي المبكر (ش : ٣٤) وتتكون من فناء مكشوف وإيوانين في جانبين متقابلين منه ، ثم انتقل هذا التصميم إلى مصر ووجد أقدم مثل له في البيت الطولوني (ش : ٥٢) ثم في البيوت الفاطمية (ش : ٨١) ثم تطور في أواخر هذا العصر إلى تصغير مساحة الفناء الأوسط ليسهل تغطيته بسقف مما نتج عنه أن أصبح الفناء والإيوانان وحدة واحدة سميت بالقاعة ، وسميت المنطقة الوسطى التي كانت فناء باسم « درقاعة » ، وذكرنا منها ثلاثة أمثلة : أقدمها قاعة الدردير الفاطمية (ش : ٨٣ و٢٥٣) ثم في قاعة محب الدين (ش : ١٣٨) التي يشاهد في القطاع عنصر الملقف فوق سقف الدرقاعة ثم القاعتان للرجال والنساء في زينب خاتون المملوكية (ش : ١٤٠ و٢٥٢) سم قاعة السلاملك في بيت الكريتلية العثماني (ش : ١٤١) والذي شيد على النمط المملوكي ، وقد أعدنا نشر رسم القاعات بقرب مسقط المسجد حتى تتضح العلاقة الوثيقة بينها وحتى يسقط الاتهام بأن مسقطه صليبي الشكل ، ونزيد على ذلك بأن نأتي بمثل للمسقط الصليبي للكنائس الذي يعرف بالشكل الإغريقي الذي تتساوى فيه أذرع الصليب الأربعة وشيدت عليه كنيسة سان فرون في مدينة بيرجيو في فرنسا

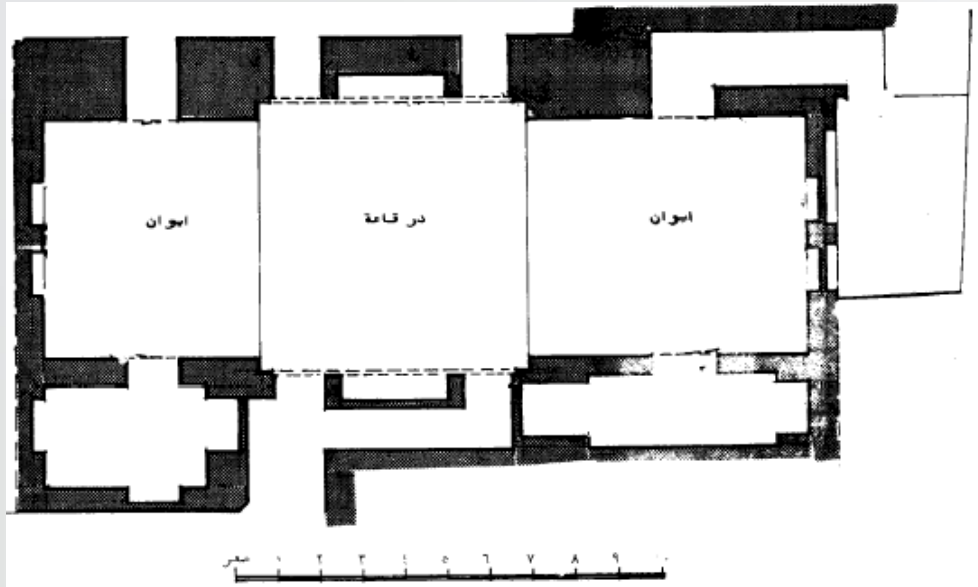

كريسول

ش : ٢٥٣ ــ قاعة الدردير ، مسقط

(ش : ٢٥٦)[١٤] ، ثم مثل للشكل الذي يعرف بالصليب اللاتيني والذي يزيد فيه طول الذراع الرئيسي عن الثلاثة الآخرين ، وشيدت عليه كنيسة بيزا الشهيرة ببرجها المائل (ش : ٢٥٧)[١٥] ، وكل ذلك يوضح بكل جلاء أن تصميم مسقط مسجد كلية الهندسة لم يخرج على التصميم التقليدي للقاعة العربية إلا في الإقلال من عمق الإيوانين على جانبي

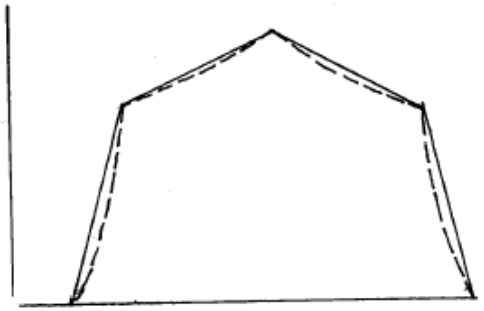

الاعلام السعودي

ش : ٢٥٤ ــ بلاد العرب ، الخيمة البدوية

مجلة الفيصل

ش : ٢٥٥ ــ بلاد الشام ، عمامة رجال الدين المسلمين

كما آمل أن توضح محاولتي هذه أن هناك مصادر للاقتباس والإلهام بصياغات وقوالب وظواهر وتصميمات معمارية من البيئات العربية والإسلامية المختلفة ومن الفنون الزخرفية والتطبيقية التي تتوفر في نواحٍ من حياة العرب والمسلمين يمكن للمعماريين والإنشائيين أن يخرجوا منها الكثير من العمائر الحديثة التي تتسم بالجدية مع الروح والطابع العربيين الإسلاميين اللذين لا يجب أن تخلو منهما عمارتنا في الحاضر والمستقبل .

* . . * . . *

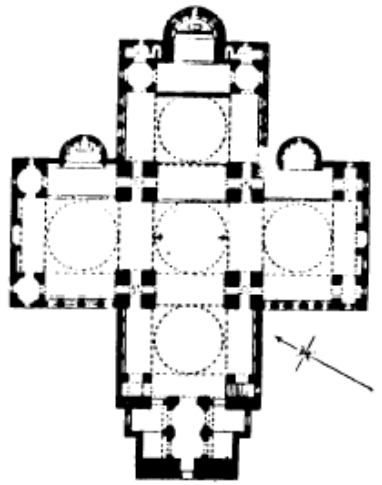

فلتشر

ش : ٢٥٦ ــ فرنسا ، كنيسة سان فرون في بيريجيو

الدرقاعة الوسطى ، وأننا زدنا عليها سقيفة للمدخل ، ويتضح من المقارنة بين كل هذه الأمثلة أن مسقط المسجد بعيد كل البعد عن أن يشبه الصليب ، وأن اتهامنا بتلك التهمة باطل من أساسه ، هو وجميع الاتهامات الأخرى المتعلقة بالقبة والأسطح المائلة وغير ذلك من التهم التي لم تصلنا أخبارها بعد ، وسواء كانت هذه أو تلك فنحن أبرياء منها تماماً ، وفي اعتقادنا أن محاولتنا ستلاقي قبولا مع مرور الوقت وتزول من الأذهان تلك التهم ويحل محلها التقدير الذي يستحقه ذلك المجهود المتواضع . وبخاصة أن ذلك التصميم يعد غريباً وسط الأمثلة غير اللائقة بمدينة الرياض وبغيرها من مدن المملكة العربية السعودية ولا يستسيغها أحد من ضيوف المملكة بل ومن أهلها من المثقفين وغير المثقفين على السواء .

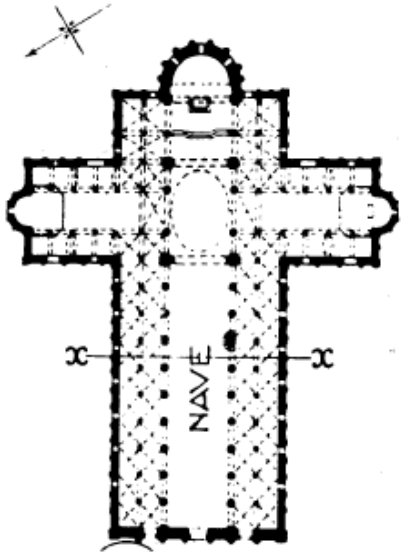

فلتشر

ش : ٢٥٧ ــ ايطاليا ، كنيسة بيزا

الفصل السادس

العمارة العربية الإسلامية في مستقبلها

مما سبق في الصفحات السابقة نحاول الإجابة على التساؤلات عن المستقبل المنتظر للعمارة العربية الإسلامية وبعد أن تتبعنا في إيجاز أهم ما وقع من أحداث وما فيها من حقائق ، سواء كانت سلبيات أم إيجابيات كان من الواجب عرضها وتحليلها بكل ما يمكن من الأمانة والوضوح ، حتى تم مواجهة المستقبل وما ينتظر أن يحدث فيه على أسس واقعية سليمة .

غير أن هناك وقائع معينة كانت على الرغم مما يبدو من بعدها في الزمن عن عصرنا الحاضر ، إلا أن عواقبها قد لعبت وستظل تقوم بأدوار بعيدة المدى وذات أثر محسوس على تاريخ الحضارة والعمارة العربية الإسلامية في الحاضر والمستقبل ، وأشرنا إلى بعضها في الصفحات السابقة ولا بأس من لمحة سريعة وإضافات أخرى حتى يترابط تسلسل الحديث حتى حدود المستقبل .

فمن تلك الأحداث الهامة ما وقع من اتصال أوروبا بالشرق الأوسط منذ قيام الحروب الصليبية ، وما كان يصاحبها من أطماع مادية متسربلة في ثياب دينية ، ثم ما تبع ذلك من تفاقم وتفتح تلك الأطماع واتساعها لتشمل مناطق أخرى من العالم أبعد من منطقة الشرق الأوسط واتجهت الأنظار إليها نتيجة لرحلات قام بها أوروبيون منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، وكشفوا فيها عن خيرات كثيرة لم تكن معروفة للأوروبيين من قبل .

ومن أهم الأحداث التالية بعد قيام الثورة الفرنسية التي أحدثت هزات وتأثيرات بطرق مباشرة وغير مباشرة لا على المجتمع الفرنسي فحسب ، بل أيضاً على المجتمعات الأخرى في أوروبا كلها ، ثم على المجتمعات في الإمبراطورية العثمانية وفي الأقطار العربية التي كانت تابعة لها . ومن المسلم به أن حروب نابليون قد زعزعت كيان أوروبا وتبعتها حملته المشهورة على الشرق الأوسط وبخاصة على مصر والتي كشفت عن الضعف الكبير الذي أخذ يتطرق إلى الإمبراطورية العثمانية ، ومن ثم أخذت الأطماع والاتجاهات الاستعمارية تتخذ صوراً عملية لاستغلال خيرات بلاد شمال إفريقية والشرق الأوسط ، ثم خيرات البلاد الأخرى في إفريقية وآسيا بل وفي الأمريكتين .

ثم تتابعت ، بعد فترة من انتهاء حروب نابليون ، أحداث أخرى خطيرة كانت من أهمها

كما ألمحنا من قبل ، الثورة الصناعية الكبرى في كل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والتي نتجت عنها وأعقبتها ثورات أخرى زعزعت من سير التسلسل الطبيعي للحضارة والعمارة في كل من القارتين ، حيث جعلت عجلة التطور تتزايد سرعتها مع مرور الزمن حتى أدى الأمر بكثير من الناس في العالم كله إلى الانبهار بل والذهول ، حتى أولئك الذين عاشوا وساهموا وما يزالون يعيشون ويساهمون في إحداث تلك الثورات العلمية والحضارية المتلاحقة ، والذين امتدت آثار انبهارهم إلى صميم حياتهم ومجتمعاتهم وإلى نواح مختلفة من حضارتهم وطرز عمارتهم .

وكان من الطبيعي أن يمتد كل ذلك أيضاً إلى المجتمعات الإسلامية بل ويزيد تأثيره عليها وتتفاقم عواقبه بسبب الاختلاف الجوهري بين ظروف البيئة من دينية واجتماعية واقتصادية ومناخية وغيرها في المجتمعات الإسلامية وبين ما يقابلها في المجتمعات الأخرى الغربية غير الإسلامية الذي تهمنا تطورات حضاراته وطرز عمارته حيث نبتت من تلك السيطرة أوضاع حاسمة يجب أن تؤخذ في الاعتبار وفي جدية وواقعية حتى يمكن الرد على تلك التساؤلات عن حال العمارة الإسلامية ، وعما إذا كان من الممكن عمل شيء في سبيلها .

ومن تلك الأوضاع ، أن أي دولة أو قطر يتكون كل شعب فيها من مجتمعين رئيسيين : أحدهما مجتمع أهل المدن ، والآخر مجتمع أهل الريف . كما يتكون كل مجتمع منهما من عدة جماعات تتفاوت مستوياتها وقدراتها المالية والثقافية وغيرها .

ولا بد من التسليم ، بغير جدال ، بأن المجتمعات الإسلامية وبخاصة في المدن قد قطعت أشواطاً كبيرة في السير على كثير من النظم العمرانية الغربية ، حتى أصبحت العواصم والمدن الكبيرة تقوم فيها أهم المراكز الحضارية من سياسية وإدارية وتجارية وثقافية وصحية وصناعية خفيفة في داخلها وثقيلة في خارجها وعلى أطرافها . ومن الطبيعي ، أن تنمو هذه المراكز وتتمدد تبعاً لازدياد نشاطاتها واتساع أعمالها ، وتبعاً لازدياد أعداد الناس وتشعب مطالب معيشتهم واحتكاكاتهم بالأوساط الغربية .

ونشأ عن تطورات البيئة في العواصم والمدن الكبيرة والصغيرة نسبياً أن قامت تجمعات في عدد من المواضع فيها ، وتركزت في بعض منها عمائر بيوت المال والمعاملات التجارية ، وقام في بعض آخر أحياء سكنية لذوي الدخل المتوسط وما تحت المتوسط للعاملين والمتصلين بتلك المعاملات التجارية والصناعية ، كما قام في بعض الأحياء عمائر تخدم كلا من الهيئات التجارية والأغراض السكنية .

وفي جميع الحالات ، إلا النادر القليل منها ، تكونت العواصم والمدن من نواة قديمة لها تاريخها وبها معالم تعود إلى أزمان ماضية ، قريبة أو بعيدة .

وكانت المدينة تنمو وتتمدد حول تلك النواة القديمة أو تمتد منها في اتجاه واحد أو عدة اتجاهات حسب طبيعة وجغرافية موقع المدينة .

وفي كثير من الأحيان كانت تلك النواة تتقلص وتنكمش تحت وطأة زحف الأحياء الجديدة حتى تكاد تتلاشى وتضيع معالمها الحضارية القديمة ، وهو أمر تنبهت إليه دول عربية كثيرة وعملت على المحافظة بقدر ما يمكن على ما تبقى من ذلك التراث ، ونجحت محاولات منها وفشل بعض آخر .

ولم تتنبه الأذهان إلى وضع خطط مدروسة ذات فاعلية لتلك العواصم والمدن القديمة إلا منذ عهد ليس بالبعيد ، وأمام مطالب ملحة للبيئات الجديدة للمجتمعات التي تكونت منها تلك المدن .

وتأتي على رأس تلك المطالب وسائل المواصلات وطرق النقل من سيارات للركوب ذات الأحجام المختلفة والشاحنات ، المعروفة باللوريات ، والحافلات ، المعروفة بالأوتوبيسات ، ذات الأحجام الضخمة والتي أصبحت من لوازم تنقلات الناس وحصولهم على ضروريات حياتهم من مأكل وملبس إلى غير ذلك .

ويعد موضوع المواصلات هذا من المشاكل الرئيسية لتخطيط المدن القديمة والحديثة على السواء ، والتي تتفاقم مع مرور الزمن ومع تكاثر أعداد الناس ، وما يتبع ذلك من تكاثر أعداد آليات النقل ، مما يضطر المخططين إلى شق طرق جديدة وتوسيع بعض من القديم في الأحياء العريقة ، وذلك على حساب تراثها القومي في أحيان كثيرة . وقد يحاول بعض أولئك المخططين من أصحاب الوعي القومي التلطف والتحايل لحصر الأضرار في أضيق نطاق ممكن ، بينما لا يبالي بعض آخر فيقتطع ويكسح أمامه كل ما يظن أنه يقف في سبيل ما يعده من تخطيط مثالي في رأيه عملا بالمثل القائل : « الحي أولى بالرعاية من الميت » .

ونبتت اتجاهات جديدة منذ عهد قريب نحو استعمال الطائرات العمودية كوسيلة للمواصلات من خارج وبين أحياء المدن ، وهي اتجاهات ستؤثر بغير شك لا على تخطيط المدن فقط بل وعلى تصميم العمائر ، لتوفير الأجهزة والفراغات في جوف العمائر للتمشي مع ضغط المواصلات الآتية من السماء .

وقصارى القول أن المحافظة على الطابع الإسلامي في تخطيط المدن في العصور الحالية قد يبدو من المتعذرات ، اللهم إلا في مناطق ذات حرمة خاصة عند المسلمين مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة ولا مجال هنا لمناقشة النظريات والآراء والمقترحات التي تتصل بالتخطيطات التي وضعت لها بواسطة المكاتب الاستشارية الغربية ، والتي نراها لم تنجح في فهم أعماق البيئات التي تضمها تلك المدن وما يجب عمله لها ، فإن تخطيط تلك المدن له فلسفة خاصة لا يدركها إلا المسلمون من أهلها ومن غيرهم ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في أبحاث أخرى .

* * *

ثم نتناول أنواع العمائر وتصميماتها التي أشرنا إلى بعضها من قبل لنجد أن من الممكن تصنيفها في مجموعات تضم كل منها المباني التي تتقارب وظائفها التي تؤديها .

ويأتي بطبيعة الحال على رأسها المراكز

الدينية التي كانت تضم أنواعاً مختلفة من العمائر في العصور الإسلامية العريقة مثل المساجد الجامعة والعادية ثم المدارس والخانقاوات ، وهي مراكز لتعليم الكبار غير المنقطعين تماماً للدراسة مثل الطلبة ، وشيدت دور خاصة لتلك مثل المدارس والجامعات . وأصبحت المساجد تكاد وظيفتها تنحصر في إقامة شعائر الصلاة . بينما انتشرت فكرة إقامة المراكز الدينية والثقافية في العواصم غير العربية لنشر اللغة العربية والتراث الإسلامي ولتعريف الأجانب بتعاليم الدين الإسلامي ولخدمة الجاليات الإسلامية في تلك البلاد .

ومما لا شك فيه أنه يمكن الانتفاع بالتكوينات الهندسية والزخرفية الإسلامية في إخراج أشكال وصياغة قوالب منها لأنواع تلك العمائر عامة والمساجد خاصة ، والتي يأتي على رأس نماذجها القديمة التخطيط النبوي ذو الصحن والظلات ، كما يمكن تطويع النموذج ذي الصحن والإيوانات . أما النموذج البازيليكي الذي أغرم به العثمانيون فلا نراه جديراً بالمحافظة عليه أو تطويره وبخاصة للبلاد العربية .

ومن المآسي التي حدثت ، وما زالت تحدث في مصر ، أن معظم المساجد التي قامت وتقوم ببنائها وزارة الأوقاف المصرية يلتزم معماريوها في حماس بذلك النموذج البازيليكي كأن ليس هناك غيره ، فهم يكررونه لجميع المساجد ، الكبير منها والصغير ، وكل ما يبذلونه من جهد هو محاولة التنويع في الزخارف والعناصر التي يقتبسونها من العصور والطرز الإسلامية المختلفة ، الأصيلة منها والدخيلة ، ثم تأتي المأساة الكبرى عندما يعرّفون ذلك الخليط بأنه طراز فاطمي ، ومن أمثلته مسجد كوبري جامعة القاهرة المعروف بمسجد صلاح الدين ، ثم مسجد عمر مكرم بميدان التحرير بالقاهرة وغيرهما الكثير . وهو يؤكد ما قلناه من قبل عن سطحية معلومات المعماريين من العرب والمسلمين عن العمارة العربية الإسلامية الأصيلة ، وبا ليتهم يعترفون بسطحيتهم هذه حتى ينتقلوا من مراحل القشور هذه إلى مراحل العمق وحتى يساهموا في تطوير العمارة العربية الإسلامية ، وفي المحافظة على أصالتها .

ومما يؤسف له ، أن يسير على ذلك المنوال المعماريون من العرب والمسلمين ومن الغربيين أيضاً الذين كلّفوا بإعداد تصميمات وبناء مساجد ومراكز ثقافية إسلامية في مدن وعواصم عربية وغير عربية وبخاصة في أوروبا وأمريكا .

وأما العمائر الخاصة بدور الحكومة والمؤسسات الاقتصادية ، والتي تتركز في قلب المدينة ، فإنه لا مناص من أن ترتفع مبانيها في الاتجاه الرأسي نظراً لارتفاع أسعار الأراضي التي تقام عليها إلى حدود خرافية أحياناً ، مما أوحى إلى المعماريين في الولايات المتحدة الأمريكية بابتكار ناطحات السحاب ، وهو الابتكار الذي أخذ ينتشر أيضاً في البلاد الإسلامية ، وأخذت طوابق البناء تتعدد وتصل إلى العشرات وقد تصل في وقت ليس بالبعيد إلى المائة أو تزيد . وبسبب ذلك العلو الكبير الذي اتجهت إليه تصميمات تلك العمائر فإنها تشاهد من بعد شاسع لمن يقصد المدينة من خارجها . وليس هناك من شك في أن تصميمات تلك العمائر كان يراعى فيها بكل حرص أن تستغل مساحة الأرض إلى أقصى ما يمكن ولتدر أكبر ما يتاح من إيرادات تعوض ما يصرف على بنائها من أموال . ومن غير المعقول والحالة هذه أن يترك فيها فراغات إلا ما لا مفر من عمله حسب القوانين البلدية والمعمارية .

ومن الصعب والحالة هذه أن تلعب العمارة الإسلامية دوراً بارزاً في تلك التصميمات ، بل يكاد يقتصر دورها على استخدام بعض الخصائص التي تتفق مع الظروف المناخية في البلاد الإسلامية ، ومنها التقليد الذي كان منتشراً من قبل والمعروف « بالبواكي » وهي أجزاء في أسفل العمائر تترك مفتوحة على الشوارع ومظللة في نفس الوقت لتخفيف شدة حرارة الشمس . وهو اتجاه فرضته بعض نظم الدول في عواصم ومدن إسلامية . غير أن أسلوب تنفيذها لم ينجح بسبب الأشكال التي نصح بها بعض المكاتب الهندسية الاستشارية الغربية ، وتضمنته تلك النظم ، والتي اقتصر اهتمامها على الطوابق الأرضية دون سائر أجزاء المبنى لأن تكون المسحة الإسلامية واضحة فيها ، بينما ترك الحبل على الغارب لأن تصمم أجزاء الكتلة المعمارية الأخرى كيفما كان ، أو بمعنى آخر أن يطبق عليها النظريات والمذاهب الحديثة ، المعتدلة منها والمتطرفة .

وقد أنتج ذلك خليطاً متنافراً لا ترتاح إليه أعين ذوي التذوق الفني أو حتى غيرهم من الأفراد العاديين . وكان من الأفضل أن تنص القوانين على ترك جزء من الأرض على الشارع في الطابق الأرضي كممر للمشاة مظلل بسقف ، وبغير تحديد لشكل واجهة ذلك الممر حتى يتبع تصميم واجهة المبنى كله .

ومن الممكن كذلك أن تنص قوانين تنظيمات البلديات على أن يراعى في تصميمات تلك العمائر ، مهما بلغت ضخامتها وارتفاعاتها ، أن تحمل سمات معمارية إسلامية ، تتمثل في القالب العام (form) والتكوينات للكتل المعمارية الرئيسية ، وفي التناغم بين

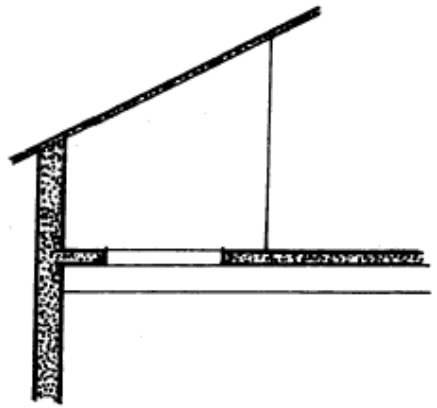

شافعي

ش : ٢٥٨ ــ البلاد العربية ، الملقف

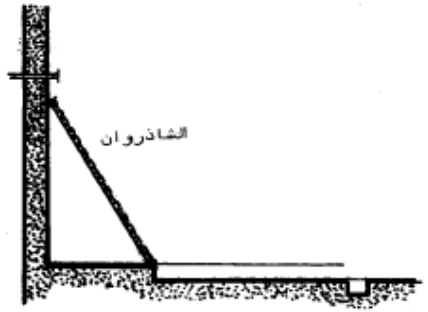

شافعي

ش : ٢٥٩ ــ البلاد العربية ، السلسبيل والشاذروان

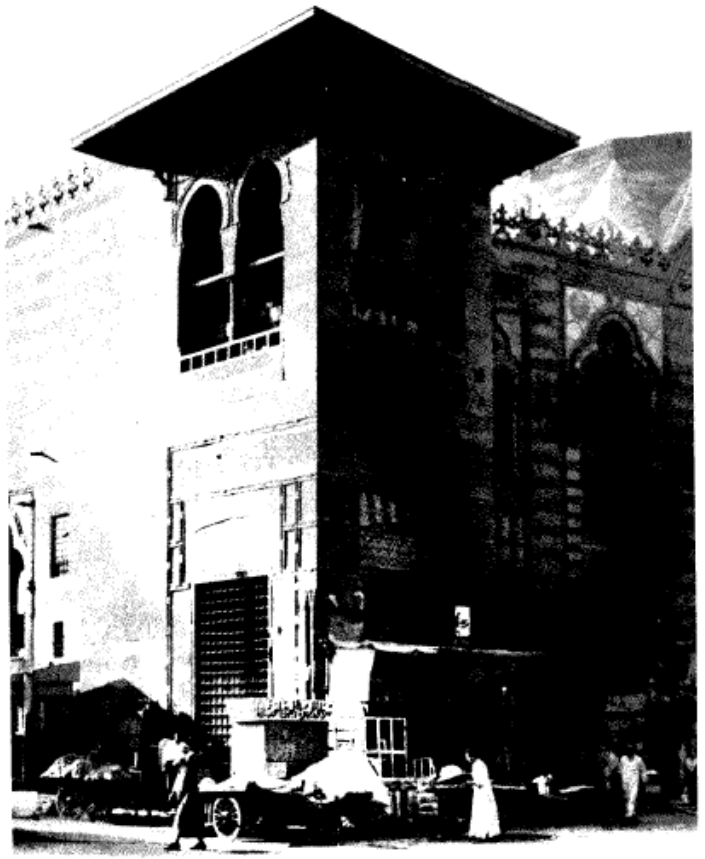

ش : ٢٦٠ ــ البلاد العربية ، السبيل
شافعي

المسطحات الصماء والمسطحات المفرغة ، وغير ذلك من الوحدات والعناصر الرئيسية ، وليس بإضافة زخارف وعناصر معمارية إسلامية لا مكان لها ولا وظيفة ، وهي لذلك تبدو مجرد قشور سطحية يمكن نزعها ، بل إنها قد تنقص من القيمة الجمالية للمبنى بسبب تنافرها مع الخطوط التجريدية التي تتسم بها المذاهب الجديدة .

بل إن هناك فرصاً للانتفاع بالتكوينات الهندسية في الزخارف الإسلامية بأن تصمم العمارة الكبيرة من عدة كتل توزع على هيئة شكل هندسي إسلامي ، من ذلك وعلى سبيل المثال العنصر المعروف « بالمفروكة » (ش : ٢٦٥ و ٢٦٦) ، ومنها الأطباق النجمية (ش : ٢٦٣ و ٢٦٤) وغير ذلك كثير ، ولا يتسع المجال لمزيد من الاقتراحات ، ونترك ذلك لاطلاع الزملاء المعماريين على تلك النواحي الزخرفية وتفهمهم إياها ، فإنه ولا شك يفتح أمامهم المجال واسعاً للاستلهام منها وللابتكار والتجديد في أنواع أخرى من العمائر ذات الصبغة التجارية ، ومع المحافظة على الطابع الإسلامي ، مع تسليمنا بأنه لا مناص من أن تعد تصميمات تلك العمائر بحيث تؤدي الوظائف التي شيدت من أجلها ، وبحيث يصل عائد إيراداتها إلى النسب المئوية من الربح المجزى ، والذي يشجع على بناء تلك العمائر ، كما أنه من المسلم به أن تزود تلك العمائر بآخر مبتكرات التكنولوجيا الحديثة .

ومن أمثلة تلك المحاولات أن أنواعاً من العمائر التجارية تبدو جديدة لأول وهلة وكأنها قد أنبتتها المدنية الحديثة ، ومثال ذلك مراكز التسويق (Shopping Centers) ، وفي الحقيقة أنها كانت معروفة في العمارة الإسلامية من قديم الزمن ولكن تحت اسم « الوكالات والخانات والفنادق » وأشرنا إليها في صفحات سابقة ، وكان منها ما يخصص لنوع واحد من السلع ، مثل فندق التفاح ، ووكالة القطن ، ومنها ما كان تباع فيه عدة أنواع من السلع ، وكانت منتشرة في العالم الإسلامي كله ، وما يزال بعضها قائماً حتى الآن في الأحياء القديمة من المدن العريقة . وكان تخطيط تلك العمائر كما ذكرنا على نظام الفناء الأوسط الذي تحيط به الوحدات والمستودعات والورش في عدة طوابق . وكانت هناك وحدات سكنية يقيم فيها التجار الوافدين مع بضائعهم وأصحاب الأعمال فترات طويلة أو قصيرة .

ش : ٢٦١ ــ البلاد العربية ، المشربيات
شافعي

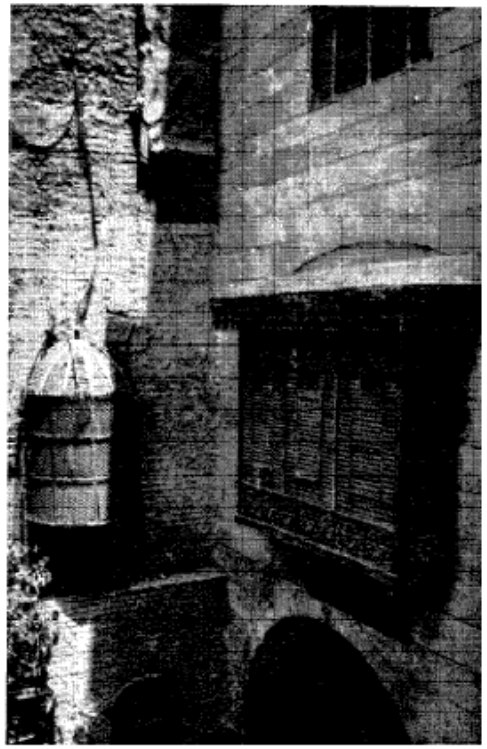

ش : ٢٦٢ ــ البلاد العربية ، المشربيات
شريحة

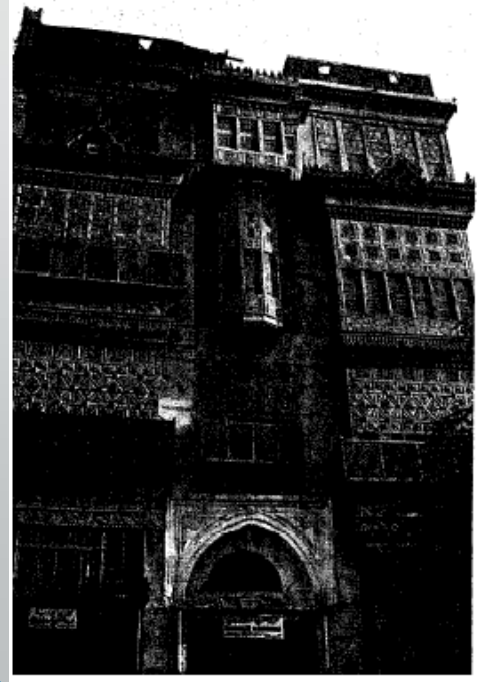

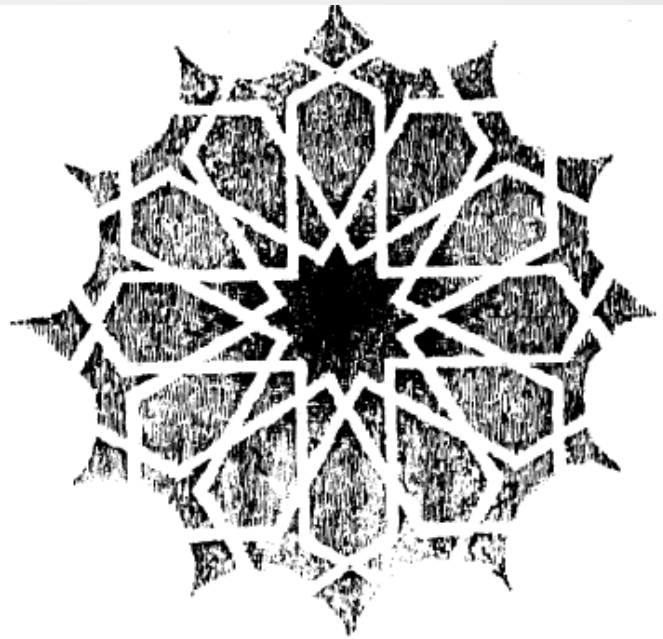

ش : ٢٦٣ ــ البلاد العربية ، عنصر الطبق النجمي

شافعي

ومن البدهي أن تكون الأوضاع قد تغيرت في العصر الحاضر بتدخل المدنية الغربية ، وأصبحت المتاجر على هيئة حوانيت تشغل الطابق الأرضي من العمائر العالية المتصل بالشوارع الرئيسية والطرق ، أو تشيد لها عمارات خاصة يشغل الواحدة منها بكاملها أحياناً متجر واحد تباع فيه سلع من جميع الأنواع التي يحتاج إليها المستهلكون ، وهو بذلك لا يختلف عن الوكالات القديمة إلا في عدم وجود الوحدات السكنية . ومن البديهي أن يخضع تخطيط تلك العمائر أو المتاجر الكبيرة للعوامل الاقتصادية وبخاصة في الأحياء التجارية ذات الأراضي الغالية الأسعار .

* * *

وتزيد فرص استلهام خصائص وعناصر العمارة الإسلامية والفنون الزخرفية وتطويعها لإخراج العمائر من الأنواع الأخرى ذات الصفات التذكارية والعلمية والترفيهية وغيرها ، ومنها على سبيل المثال : المتاحف وقاعات الاحتفالات والمسارح وما في حكمها ، ثم الملاعب الرياضية المكشوفة والمغطاة ، فإن في مميزات العمارة والفنون الزخرفية الإسلامية نبع لا ينضب للإيحاء بتصميمات لتلك الأنواع من العمائر وإخراجها في قوالب غاية في الروعة ولها طابع إسلامي يتميز وينفرد بطلاوة وشخصية لا يباريه فيهما طرز أخرى حديثة ، بل لعلها تكون مصدراً للإيحاء باتجاهات جديدة في العالم كله حتى في العالم الغربي الذي أوجد ما سماه « الطراز العالمي » .

وضربنا عدة أمثلة لأنواع من تلك العمائر

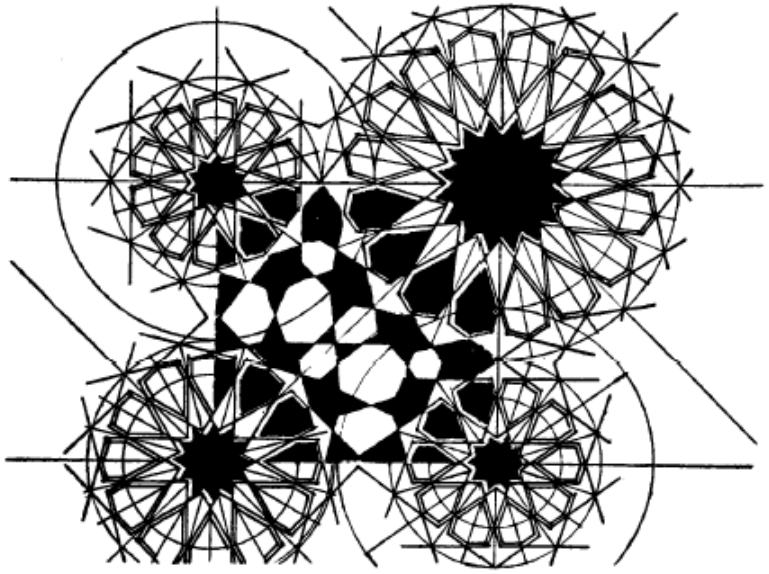

شافعي

ش : ٢٦٤ ــ البلاد العربية ، عنصر الطبق النجمي

التي نجح مصمموها في إعدادها لتؤدي الوظائف التي شيدت من أجلها على أكمل وجه مع انعكاس لمسات من الطابع المعماري الإسلامي أحياناً عن قصد وأحياناً عن غير قصد ، كما ضربنا مثلاً لما يمكن عمله في مجالات العمارة الحديثة مع المحافظة على الطرز الوطنية المحلية مثلما حدث في مباني الأولمبياد في طوكيو .

وأخيراً ولكي نصل إلى إجابة شافية تقوم على أساس سليم للتساؤل عن مدى الفرص المتاحة أمام العمارة الإسلامية لكي تزدهر ، أو على الأقل لكي تعود أهم سماتها وأصالتها وتقاليدها إلى المجتمعات الإسلامية ، ويتنبه الناس إلى ما فيها من إمكانات لخدمتهم في العصور الحاضرة والمستقبلة ، وإلى عدم تعارض الكثير من ذلك التراث مع المبتكرات الحديثة ، ومع التطورات العالمية في ميادين العلوم والصناعات والتكنولوجيا ، بل وإلى سهولة الاتفاق بل التزاوج والانسجام بينها كلها أو بعضها ، وذلك لكي تخدم العرب والمسلمين كما خدمتهم وقامت بسد حاجاتهم في جميع العصور والظروف والعوامل التي عاشوها ، نقول إنه لكي نصل إلى تلك الإجابة فإن هناك عدة نواح واقعية وحقائق تتصل بصميم حياة المجتمعات في العالم الإسلامي يجب أن تؤخذ في الاعتبار وبكل وضوح ، وذلك إلى جانب اللمحات الواقعية التي ألقيناها على العالم الغربي الذي صار ، أردنا أو لم نرد ، قدوة للعالم كله بما فيه عالم العرب والمسلمين ، وذلك بسبب ما أحرزه من تقدم عظيم وما حدث فيه من تطورات .

* * *

وتأتي على قمة تلك النواحي الواقعية والحقائق البيئة المناخية التي لم تتغير منذ عشرات بل مئات الألوف من السنين وربما الملايين ، ولا ينتظر أن تتغير إلا بعد فترات مماثلة .

وتتميز البلاد التي قامت فيها العمارة الإسلامية بمناخ معتدل غالباً ، وقد تزيد الحرارة في بعض منها أو تنقص في فترات من السنة . وهي بيئة مناخية تختلف عن بيئة البلاد التي ظهرت فيها المبتكرات والاختراعات التكنولوجية ، وقامت فيها الاتجاهات والمذاهب المعمارية والفنية الحديثة ، والتي لا يصح بأي حال من الأحوال تطبيق بعضها بحذافيره على البلاد الإسلامية ، ولا مناص من أن نؤقلم لها تلك المذاهب ، وأن تستخدم المواد الحديثة والمبتكرات التكنولوجية والصناعية بطريقة تلائم البيئة المناخية في بلادنا ، ومن ذلك مثلاً الفراغات الكبيرة في الجدران الخارجية من العمائر فإنه لا يمكن ملؤها بالزجاج والحديد في البلاد الإسلامية والعربية ، فهو أمر لا يتفق مع اشتداد الحرارة فيها في أغلب فترات السنة ومع شدة الضوء في تلك الفترات ، بينما تشتد الرغبة بل واللهفة إليها في أغلب البلاد الغربية وخلال معظم فترات السنة .

ثم إن هناك حقيقة تتعلق بخواص الخرسانة المسلحة والحديد وهي سهولة إشعاع الحرارة إلى داخل المباني من خلال الجدران الخارجية والأسقف ، وهو مصدر متاعب لمن يسكن في الطوابق العليا من العمائر ، ولا يتمتع بالقدرة المالية على استخدام أجهزة التلطيف من تلك الحرارة الشديدة ، كما تستنفذ طاقة كهربائية واقتصادية ممن عنده القدرة على ذلك ، ومن ثم ، فإنه من الواجب مراعاة ابتكار طرق ومواد محلية أو مصنعة تخفف من الالتجاء إلى تلك الوسائل الباهظة الثمن سواء في تكاليف تركيباتها أو في استهلاكها . وليس في مقدور الناس كلهم أن يحصلوا عليها ، اللهم إلا أصحاب رؤوس الأموال والاقتصاديين الكبار ، وذلك إما في العمائر الكبيرة في قلب المدن أو في مساكنهم الخاصة . أما الطبقة المتوسطة من الناس والأقل من المتوسطة فإنهم يرهقون أنفسهم في الصرف عليها ، وهو أمر لا يتفق مع القواعد الاقتصادية المعروفة .

كل تلك المشاكل قامت بحلها العمارة الإسلامية بطرق مختلفة ومتعددة ، سنعرج إلى استعراضها بعد قليل ، حيث أنها تتعلق بنواح وحقائق مختلفة من البيئة ، مثل العوامل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

ثم تأتي البيئة الدينية التي كان لها أكبر تأثير على تطور العمارة في العصور الإسلامية المختلفة ، وما تبلور عنها من تقاليد دينية واجتماعية واقتصادية وغيرها .

وعلى الرغم مما لحق بالبيئة الدينية في البلاد الإسلامية من تطورات نتجت من احتكاك البلاد الإسلامية والعربية بالمدنية الغربية ، فإن ذلك لم يحدث إلا تغييراً سطحياً ، أما الجوهر فقد بقي سليماً قوياً كما كان في الماضي وسيبقى كذلك أبد الدهر . والأدلة على ذلك كثيرة ، منها أن الهزات التي أصابت البلاد الغربية بسبب الصراع على الاستئثار بالسلطة والسيطرة على العالم وخيراته ، وما نتج عن ذلك من حروب ضارية ومدمرة قد جعلت فئات من الشباب الغربي يفقد ثقته بالقيم الخلقية والدينية بل وفي قادتهم وحكوماتهم ، ومن ثم ، تاهوا في دوامات من القلق وصاروا يتخبطون في حياتهم .

وحدث مثل ذلك في نطاق ضيق في المجتمعات الإسلامية التي كانت من ميادين ذلك الصراع ، وعانت من سيطرة وتغلغل نفوذ العالم الغربي بطرق مباشرة أحياناً ومستترة أحياناً أخرى ، ومن ثم ، تعرضت تقاليدها الدينية لعوامل هدم وتشكيك بالغة الضراوة ، ولمحاولات إغراق شبابها بالمغريات المادية والحسية ، ثم بالمبادئ التخريبية مثل الاشتراكية والشيوعية وغيرها .

غير أن كل تلك الجهود لم تسفر إلا عن تأثيرات سطحية على فئة قليلة من الشباب الذين بهرتهم الأضواء المزيفة فترة ثم عاد أغلبهم إلى حظيرة البيئة الدينية الإسلامية وإلى التقاليد الراسخة في نفوسهم وفي بيئاتهم الأصيلة . ومن أقوى الأدلة على ذلك عودة الكثيرات من الشابات المسلمات في أغلب بلاد العالم الإسلامي إلى ستر رؤوسهن وإلى تتبع دروس الوعظ والإرشاد . وهذا وغيره لأدلة على تغلغل المعتقدات الدينية في نفوس المسلمين مهما بذلت ضدها من محاولات ومهما وقعت في بلادنا من أحداث ومهما تطرقت إلى حياتنا من تقاليد غربية ومن مبتكرات تكنولوجية ، ولا يمكن والحالة هذه تجاهل هذه البيئة وما انبثق عنها من تقاليد اجتماعية في الإنتاج المعماري في الحاضر والمستقبل .

وتتصل البيئة الاجتماعية برباط وثيق بالبيئة الدينية ، وبخاصة من ناحية ستر المرأة وتعليمها حتى وصلت إلى مراتب أكاديمية عالية ، وتلك أمور قد تبدو مخالفة للتقاليد الدينية في رأي بعض الناس ولكنها لا تبدو كذلك للكثير الآخر . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا التطور لا شك كان له تأثيره على تطور العمارة وبخاصة في المساكن سواء كانت جماعية أو منفردة ، أي كانت على هيئة مساكن خاصة .

ولكن على الرغم مما ظهر من اقتباسات من التصميمات الغربية للمساكن ، وذلك من حيث بناء عمارات للإيراد تضم عدة شقق أو بناء « فيلات » لذوي الدخل المتوسط أو فوق المتوسط ، فإن ذلك الاقتباس قد فقد أهم ميزة فيه وهي الاقتصاد في مساحة المسكن وفي تكاليفه ، فإن المجتمعات الغربية لا تفرد حجرة خاصة بالضيوف تظل مقفلة أو غير مستعملة أكثر أيام الأسبوع حتى ولو كان صاحب الدار من ذوي الدخل فوق المتوسط ، بينما يلتزم ذوو الدخل المتوسط في بلادنا بإفراد مثل تلك الحجرة بل قد يفرد الواحد منهم حجرة أخرى خاصة به ولضيوفه من الرجال والأصدقاء المقربين ، وحتى يترك لأهل الدار أكثر ما يمكن من الحرية في التنقل داخل الدار ، وهو إسراف لا شك فيه ، لا من ناحية إيجار المسكن أو تكاليف بنائه فحسب ، بل أيضاً من ناحية ثمن الأثاث الذي يجب أن يزود به ، ثم تكاليف صيانته من حيث تنظيفه أو من حيث تجديد ما

يتطرق إليه من البلى . ولا نعتقد أن هذا الأمر يمكن علاجه إلا إذا واجه الناس الواقع الاقتصادي والاجتماعي بكل شجاعة واكتفوا في مساكنهم بحجرة واحدة للمعيشة تضم حجرة الجلوس لأهل المنزل وبها حجرة الأكل وذلك بطريقة عملية ، ثم بعمل ، إذا كان ذلك من الأمور الملحة ، حجرة صغيرة نسبياً كمكتب لصاحب الدار ولصاحبته لاستقبال الزوار غير الحميمين ، أو الرسميين . وسنعود بعد قليل إلى مناقشة ما يمكن أن تخدم به تقاليد العمارة الإسلامية موضوع تصميمات تلك المساكن .

ومن النواحي الواقعية التي يجب أخذها في الاعتبار الحالة الاقتصادية لفئات الناس الذين يتكون منهم المجتمع في الأقطار الإسلامية المختلفة .

فمن المعروف ، أن معظم البلاد الإسلامية لم تكن تتمتع بوفرة في مواردها المالية كالحال في البلاد الأوروبية والأمريكية ، ولم يطرق المال الغزير أبواب بعض الدول العربية والإسلامية إلا منذ فترة قصيرة ، وبالتالي فإن محاولات النهو فيها من علمية وصناعية وزراعية واقتصادية وغيرها ما تزال وستظل فترة أخرى محدودة إلى درجة محسوسة ، وذلك بسبب اعتمادها على الدعم من البلاد الغربية الغنية بتلك الإمكانات ، وهو دعم لا يصل إلى البلاد الإسلامية إلا متمشياً مع خطط وأهداف مدروسة وضعتها البلاد الغنية بها واتفقت فيما بينها عليها .

وهناك حقيقة لا يمكن إغفالها وتتعلق بتقسيم الأراضي في المدن الإسلامية ، وهي أن تخطيط تلك المدن قد خضع تماماً للنظم التي تُعنى في المقام الأول بدراسة الطرق والشوارع وتوزيعها على أساس المواصلات واتساع الشوارع لتستوعب أنواع الآليات التي تصل بين أرجائها الداخلية وأطرافها الخارجية ، ومن ثم ، صارت الطرق تستحوذ على مساحات شاسعة من مجموع أراضي المدينة ، ومن ثم تضاءلت نسبياً مساحات الأراضي المخصصة للبناء وبالتالي ارتفعت أثمانها وما زالت ترتفع بسرعة بالغة . وكل ذلك يؤثر بغير شك على أشكال الأراضي المعدة للبناء وعلى تصميم العمائر التي تقام عليها سواء كانت مخصصة للأغراض التجارية أو المدنية العامة أو السكنية .

* * *

هذا وما هو جدير بالتسجيل أن بعض البلاد الإسلامية التي أنعم عليها الله برزق واسع تحاول جاهدة أن تدخل ميادين الصناعة والتكنولوجيا والأخذ بالأساليب الحديثة في ميادين الحياة المختلفة ، إلا أن هناك أخطاء تقع في طرق تنفيذ المشروعات الحيوية التي تقبل عليها بكل حماس ، ذلك أنها تعتمد في ذلك على المواد والأساليب الحديثة المتوفرة في البلاد الغربية بل وعلى خبراتها في إعداد أمثال تلك المشروعات ، ولا شك أن تلك الأخطاء ستقل تدريجياً مع مرور الوقت وتوفر الخبرات والتجارب لشباب تلك الدول .

تلك هي بعض النواحي الواقعية التي يتميز بها العصر الحاضر في البلاد الإسلامية والتي يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند مناقشة موضع العمارة الإسلامية بين طرز العالم المعمارية في الحاضر والمستقبل .

* * *

ونكتفي بالعرض والتحليل اللذين أوجزناهما في الصفحات السابقة للتطورات التاريخية والخصائص الرئيسية للعمارة الإسلامية في العصور المختلفة ، ثم للتطورات العالمية التي حدثت في العصور الماضية القريبة والحالية ، والتي حفلت بالاتجاهات والمذاهب المعمارية الجديدة ، وما دوى في أرجاء العالم من تأثيرات الخامات الطبيعية والمواد المصنعة والأساليب المستحدثة في طرق البناء ، ثم المبتكرات التكنولوجية التي أصبح لا غنى للناس عنها في حياتهم سواء كانوا في حاجة حقيقية إليها أو تقليداً لغيرهم وحباً في المباهاة ، ثم في أنواع العمائر التي تشيد من أجل تأدية الوظائف التي تتطلبها طرق معيشتهم وظروف بيئاتهم .

ثم نخلص إلى المرحلة الهامة والأخيرة من بحثنا ، وهي التي تشمل عرضاً لعدد من الخصائص والتقاليد والأساليب والعناصر التي تحتفظ للبلاد والمدن الإسلامية بأكبر قسط ممكن من الطابع الإسلامي الأصيل ، والتي تمتاز في الوقت نفسه بصلاحيات كبيرة لخدمة المجتمع الإسلامي وتؤدي للمسلمين أكثر ما يمكن من فوائد في عصرنا الحاضر ، وتتمشى أيضاً مع التيارات العالمية والمبتكرات الحديثة ، بل ويمكن الاستعاضة ببعضها عن تلك المبتكرات في المجتمعات والمستويات التي يرهقها أو لا يمكنها اقتناء مثل تلك المبتكرات .

وقد هدتنا دراساتنا إلى ما تتميز به الفنون والعمارة الإسلامية من الواقعية الكاملة وإلى أنه لم يتطرق إليها أي اتجاهات أسطورية أو رمزية ولا غيرها من التي كان لها تأثيرات محسوسة على الطرز الكلاسيكية والمسيحية وما انبثق عنها من طرز العصور الوسطى والنهضة الأوروبية ، والتي اتجه المعماريون المحدثون إلى التخلص منها والثورة عليها ، وذلك سعياً وراء الواقعية التي سبقهم إليها المعماريون العرب والمسلمون من قبل ، والتي تكونت منها القاعدة العريضة والصرح الشامخ للعمارة والفنون الإسلامية منذ نحو أربع عشر قرناً .

أما محاولات بعض المحدثين تلمس أو تفسير لبعض نواح من الطرز الإسلامية بطريقة فلسفية أو نسبة اتجاهات فلسفية كانت تؤثر على المعماريين العرب والمسلمين وعلى إنتاجهم ، فإن تلك المحاولات تتسم في رأينا بالاهتزاز والإبهام بل وبالافتعال الذي لا معنى له ولا أساس ، وليس في رأينا سوى ادعاء بالتعمق في فهم العمارة الإسلامية .

وهدتنا دراساتنا أيضاً إلى جانب آخر لا يقل أهمية ، وهو أن خلو العمارة والفنون الإسلامية من الأسطورية والرمزية من جهة ، ثم التحرج من مضاهاة صنعة الخالق عز وجل من حيث تصوير مخلوقاته في مسطحات أو تجسيمات من جهة أخرى ، قد أوحت إلى الفنانين والمعماريين من المسلمين القدماء بارتياد ميادين واقعية غاية في الاتساع تشمل مجموعات عديدة من الوحدات والعناصر والتكوينات الزخرفية ذات طابع هندسي غاية في الطلاوة والجمال الساحر ، وتعد كلها من النوع

التجريدي الذي أصبح محبباً لدى أصحاب المذاهب والاتجاهات الحديثة . وما زالت تلك الميادين مفتوحة على اتساعها أمام الفنانين والمعماريين المسلمين المحدثين لأن يصولوا ويجولوا فيها ، وأن يغترفوا منها ما شاءوا ، وأن يطوروها ويخرجوا منها تحفاً عالمية ذات طابع إسلامي أصيل ، وهو في الوقت نفسه غاية في الجدة والاستحداث ، ولا يقل مستوى طرازها عن أي طراز عالمي حديث .

ويلاحظ أننا وضعنا المسئولية في ذلك على كاهل الفنانين المسلمين بوجه خاص لأننا نؤمن بأن الأصالة الإسلامية ما تزال تجري في عروقهم جريان الدم ، وأن ما أصابها إنّ هو إلا غشاوة عابرة من السهل عليهم رفعها لتعود إلى التألق والازدهار .

أما المعماريون من الغربيين فليس من اليسير عليهم الوصول إلى أعماق تلك الأصالة مهما بذلوا من جهود ، لأن ما يجري في دمائهم نوعيات أخرى من الأصالات تغلبت عليها ، بل سيطرت عليها ، الماديات الخالصة ، والتي يبدو لأول وهلة أن المسلمين قد انغمسوا فيها مع أنهم في الحقيقة ليس من السهل عليهم أن يخضعوا لها إلا لفترة قصيرة ، وسرعان ما يحنون إلى العودة إلى الإعجاب بل اللهفة إلى ما وضعه آباؤهم من أشكال وقوالب فيها رقة وسحر تبعث على الهدوء والراحة النفسية ، وأن يتنبهوا إلى ما في الاتجاهات الغربية من جفاف وصرامة .

وترك المسلمون السابقون كنوزاً من تلك الوحدات والتكوينات والعناصر ذات الطابع الهندسي التجريدي ومنها الكتابات الكوفية . واستلفتت تلك الكنوز أنظار العلماء الفرنسيين الذين صاحبوا حملة نابوليون على مصر وآخرين غيرهم ممن يستحقون أن يذكر لهم بالفضل على ما قاموا به من جهد في جمع الكثير من تلك الكنوز وتسجيلها في مراجع تعد الآن من أثمن المراجع لتلك الميادين التي أشرنا إليها ، وهي ذات فائدة عظمى في الوحي بأشكال وقوالب معمارية وللكتل العامة والعناصر والتفاصيل[1] .

ولقد عرضنا في فقرات سابقة مقترحات لنا للانتفاع ببعض تلك التكوينات والعناصر والوحدات في تصميمات الكتل الرئيسية لعمائر ضخمة ، واقترحنا مثلاً أن توزع تلك الكتل على شكل المفروكة السزخرفية (ش : ٢٦٥ و٢٦٦) أو على شكل من الأطباق النجمية (ش : ٢٦٣ و٢٦٤) . والتي لا تقع أعدادها تحت حصر . كما اقترحنا أن ينتفع بتلك الأشكال لتخطيط الميادين والمساحات الفضاء داخل المدن ، أي في الأحياء التجارية أو السكنية ، إلى غير ذلك من الأغراض .

وبالاضافة إلى ذلك فإن العمارة الإسلامية قد اشتملت على عدة تكوينات ووحدات وعناصر رئيسية تاهت منافعها وفوائدها الجمة أمام غزو التكنولوجيا الحديثة ، بينما لم تزل في غاية الصلاحية لأن تقوم بنفس الوظيفة التي كانت تقوم بها في العصور السابقة ولا تتعارض مع الاتجاهات الجديدة في التصميم ، اللهم إلا في العمائر التي تقع في قلب المدينة أو

شافعي

ش : ٢٦٥ ــ البلاد العربية ، عنصر المفروكة

شافعي

ش : ٢٦٦ ــ البلاد العربية ، عنصر المفروكة

العاصمة ، والتي لا غنى عن استخدام المبتكرات التكنولوجية الحديثة لها .

يأتي على رأس تلك الوحدات في تخطيط العمائر الإسلامية عنصر الفناء الذي كان يتوسط جميع أنواعها إلا القلة النادرة منها ، والذي اصطلح على تسميته « بالصحن » في المساجد و« بالفناء » أو « الحوش » كما يسمى في اللغة الدارجة في معظم البلاد العربية . وهو الوحدة المعمارية التي ظلت متربعة على عرشها بين جميع الوحدات منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام حتى العصر العثماني المتأخر ، بل إلى وقتنا هذا ، حيث يشاهد في العمائر التي بقيت متماسكة من العصور الإسلامية المختلفة وفي المدن ذات التاريخ العريق .

وكان الفناء أو الحوش في جميع تلك العمائر سواء كانت دينية أم مدنية أم سكنية بمثابة القلب النابض فيها والذي تقوم عليه الحياة داخل المبنى ، حيث كان يؤدي عدة وظائف غاية في الأهمية بالنسبة لساكني تلك العمائر منها ما كان مركز الحركة والتوزيع والاتصالات بين خارج المبنى وبين ما بداخله من الوحدات الأخرى الرئيسية والفرعية . وكان به في أغلب الأحيان البئر الذي يغذي شاغلي المبنى بالماء ، وكان به حديقة تضفي على المبنى جواً من البهجة والراحة النفسية . كما كان يقوم بوظيفة مرشح للأتربة التي يحملها الهواء في البلاد الحارة والمعتدلة ، والتي يحمل معها الآن الأبخرة والغازات التي تلوث الأجواء نتيجة للغازات التي تنفثها الآليات الحديثة في رئات الناس وتصيبهم بأشر أنواع الأمراض ، مما يجعلهم في العصر الحاضر أشد حاجة إليه ممن سبقوهم في العصور الماضية . وكذلك كان الفناء يكسر حدة الضوضاء الآتية من الطرق ، والتي تفاقمت إلى حد رهيب في هذه الأيام بسبب تلك الآليات ، كما كان يخفف من حدة الضوء في بلادنا . أما الوظيفة التي كان يهتم لها المجتمع الإسلامي من قبل وهي الحجاب ، فإنها قد تضاءلت في كثير من المجتمعات ، وهي آخذة في التضاؤل في البقية التي لا تزال متمسكة بها حتى الآن .

ولعب الفناء أو الحوش دوراً رئيسياً أو الدور الرئيسي بين جميع وحدات العمائر على اختلاف أنواعها ، فما كان هناك غنى عنه في بناء المدرسة ولا في الخانقاه ولا في المارستان ولا الوكالة ولا الفندق ولا الخان ولا الربع ، وكذلك للدور والقصور التي كانت العناية تزداد به فيها ، إذ كانت النافورات تزينه مع أحواض الزهور وينساب إليها الماء من سلسبيل يوضع في صدر القاعة أو الإيوان ، وسنشرح هذا السلسبيل بعد قليل .

وليس يداخلنا أي شك في صلاحيته التامة في وقتنا الحاضر لأن ينتشر استخدامه في تصميم أكثر أنواع العمائر في الوقت الحاضر ، فيما عدا العمائر التي تحتم العوامل الاقتصادية الارتفاع بها رأسياً للعوامل الاقتصادية التي شرحناها ، مع استخدام الأجهزة الآلية .

وتتجه تصميمات المباني العامة مثل المدارس والمستشفيات والمجموعات الترفيهية إلى توزيع أجزاء المبنى منها على هيئة كتل معمارية منفصلة تتخللها مساحات مكشوفة أو أراض فضاء

العاصمة ، والتي لا غنى عن استخدام المبتكرات التكنولوجية الحديثة لها .

يأتي على رأس تلك الوحدات في تخطيط العمائر الإسلامية عنصر الفناء الذي كان يتوسط جميع أنواعها إلا القلة النادرة منها ، والذي اصطلح على تسميته « بالصحن » في المساجد و« بالفناء » أو « الحوش » كما يسمى في اللغة الدارجة في معظم البلاد العربية . وهو الوحدة المعمارية التي ظلت متربعة على عرشها بين جميع الوحدات منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام حتى العصر العثماني المتأخر ، بل إلى وقتنا هذا ، حيث يشاهد في العمائر التي بقيت متماسكة من العصور الإسلامية المختلفة وفي المدن ذات التاريخ العريق .

وكان الفناء أو الحوش في جميع تلك العمائر سواء كانت دينية أم مدنية أم سكنية بمثابة القلب النابض فيها والذي تقوم عليه الحياة داخل المبنى ، حيث كان يؤدي عدة وظائف غاية في الأهمية بالنسبة لساكني تلك العمائر منها ما كان مركز الحركة والتوزيع والاتصالات بين خارج المبنى وبين ما بداخله من الوحدات الأخرى الرئيسية والفرعية . وكان به في أغلب الأحيان البئر الذي يغذي شاغلي المبنى بالماء ، وكان به حديقة تضفي على المبنى جواً من البهجة والراحة النفسية . كما كان يقوم بوظيفة مرشح للأتربة التي يحملها الهواء في البلاد الحارة والمعتدلة ، والتي يحمل معها الآن الأبخرة والغازات التي تلوث الأجواء نتيجة للغازات التي تنفثها الآليات الحديثة في رئات الناس وتصيبهم بأشر أنواع الأمراض ، مما يجعلهم في العصر الحاضر أشد حاجة إليه ممن سبقوهم في العصور الماضية . وكذلك كان الفناء يكسر حدة الضوضاء الآتية من الطرق ، والتي تفاقمت إلى حد رهيب في هذه الأيام بسبب تلك الآليات ، كما كان يخفف من حدة الضوء في بلادنا . أما الوظيفة التي كان يهتم لها المجتمع الإسلامي من قبل وهي الحجاب ، فإنها قد تضاءلت في كثير من المجتمعات ، وهي آخذة في التضاؤل في البقية التي لا تزال متمسكة بها حتى الآن .

ولعب الفناء أو الحوش دوراً رئيسياً أو الدور الرئيسي بين جميع وحدات العمائر على اختلاف أنواعها ، فما كان هناك غنى عنه في بناء المدرسة ولا في الخانقاه ولا في المارستان ولا الوكالة ولا الفندق ولا الخان ولا الربع ، وكذلك للدور والقصور التي كانت العناية تزداد به فيها ، إذ كانت النافورات تزينه مع أحواض الزهور وينساب إليها الماء من سلسبيل يوضع في صدر القاعة أو الإيوان ، وسنشرح هذا السلسبيل بعد قليل .

وليس يداخلنا أي شك في صلاحيته التامة في وقتنا الحاضر لأن ينتشر استخدامه في تصميم أكثر أنواع العمائر في الوقت الحاضر ، فيما عدا العمائر التي تحتم العوامل الاقتصادية الارتفاع بها رأسياً للعوامل الاقتصادية التي شرحناها ، مع استخدام الأجهزة الآلية .

وتتجه تصميمات المباني العامة مثل المدارس والمستشفيات والمجموعات الترفيهية إلى توزيع أجزاء المبنى منها على هيئة كتل معمارية منفصلة تتخللها مساحات مكشوفة أو أراض فضاء

يمكن تحويلها إلى أفنية بعمل أروقة مظللة تصلها ببعضها البعض ، وتحف صفوف الأعمدة بتلك الأروقة ، ويمكن وضع حشوات مفرغة بين تلك الأعمدة فتضيف ظلالا وتلطيفاً لحدة الضوء والحرارة ، وكلها أمور محببة بل ضرورية في الأجواء التي تتصف بها بلادنا العربية والإسلامية .

وليس هناك من شك في إمكان خلق الأفنية في الدور السكنية الخاصة والعامة أيضاً ، وليس المعماريون العرب والمسلمون بأقل كفاءة من نظرائهم الأسبان الذين ما يزالون يستعملون الأفنية في الدور حتى عصرنا الحاضر ، وحافظوا على ذلك التقليد الذي ورثوه من أيام وجود العرب في الأندلس ، ويسمى الأسبان الفناء هناك « بالباتيو » ، وذلك على الرغم من وقوع المسكن على شوارع وطرق متسعة تتفق مع أحدث نظريات تخطيط المدن .

ومن الممكن أن يجمع أيضاً عدد من تلك المساكن الخاصة حول فناء مقفل يقوم في وسطها ويقسم إلى مساحات يختص كل مسكن منها بقسم من الفناء ، كما يمكن تزويد الجدران الفاصلة بأبواب تجعل من السهل اتصال أهل كل منها بالآخرين ، كما يمكن الفصل بينهم في حالة عدم رغبتهم في الاختلاط بالآخرين .

كذلك نجد الفناء المقفل من جوانبه ذا فائدة لا تقدر في مشروعات الإسكان المتوسط والاقتصادي ، ويفضل بدون شك الفراغات المفتوحة التي تفصل بين مجموعات الأبنية التي تشيد حالياً ، ذلك لأن الفناء المقفل والذي كان يقوم بالوظائف التي شرحناها ، يمكن أن يقوم أيضاً بأداء خدمتين هامتين لسكان ذلك النوع من العمائر السكنية : أحداهما اجتماعية حيث يقربهم من بعضهم البعض بزيادة الاتصال بينهم ، وأن يزيد فرص مقابلتهم لبعضهم البعض في أثناء دخولهم إليه وخروجهم منه . كما أنه من الممكن تخصيص مساحة منه لتكون منتدى لهم يقضون فيه أوقاتاً من السمر والترفيه . أما الخدمة الكبيرة الأخرى فإن مثل تلك الأفنية ستقوم بحماية الصغار من التعرض لأخطار المرور إذا ما زاولوا ألعابهم التي لا غنى لهم عنها مثل كرة القدم وركوب الدراجات والانزلاق بالقباقيب وغيرها .

* * *

ويتصل بالبيئة المناخية ابتكار انتشر استعماله في جميع العصور وفي البلاد الإسلامية على اختلاف أنواع مناخها ، وهو المعروف بالملقف .

ويتكون الملقف من فتحة في سقف الوحدة المعمارية سواء كانت قاعة أو إيوان أو حجرة ، وغالباً ما يكون ذلك السقف من الخشب ، ويوضع فوق تلك الفتحة ما يشبه صندوقاً من الخشب له جانبان مثلثا الشكل وغطاء مائل ويترك الضلع الرابع مفتوحاً مواجهاً للاتجاه الذي يأتي منه النسيم في معظم أوقات السنة وبخاصة في أيام الصيف (ش : ١٣٩ و ٢٥٨) ، ويتقبل ذلك الضلع المفتوح تيارات الهواء فتتدفق منه وتصطدم بالغطاء المائل وتنحدر من فتحة السقف إلى المكان الذي تعلوه وتحدث تلطيفاً ملموساً في جوه ، ومن السهل الإحساس بتلك التيارات إذا ما وقف الإنسان تحت تلك الفتحة . وكان يراعي طبعاً إمكان التحكم في غلق وفتح تلك الفتحة عند اللزوم إذا اشتد البرد .

ولا يداخلنا شك ما في أنه من السهولة تطوير فكرة الملقف والانتفاع به في جميع العمائر الحديثة على هيئة أنابيب جدارية مثل تلك التي تعد للمدافئ في البلاد الباردة ، بحيث تعالج فتحة الأنبوبة منها داخل الوحدات المعمارية وفي خارج الواجهات في قوالب معمارية وزخرفية ذات طابع عربي إسلامي .

ويا حبذا لو قرن عمل الملقف مع عمل السلسبيل الذي سيأتي شرحه في الفقرة التالية بحيث تسقط التيارات الهوائية فوق السلسبيل فتحدث تبريداً مضاعفاً لا يقل كثيراً عما تحدثه أجهزة التبريد الصحراوية ، وبخاصة في المناطق التي تتميز بجفاف المناخ .

أما الابتكار العربي الإسلامي الصميم الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة وهو المعروف بالسلسبيل (ش : ٢٥٩) فقد استخدم في الدور والقصور في كل من مصر والشام كما استخدم في الأسبلة التي انتشر بناؤها في القطرين وبقيت منه عدة أمثلة تؤرخ في العصر المملوكي ، وأغلب ظننا أنه كان معروفاً منذ العصر الفاطمي بل من قبل ذلك . كما يحتمل أنه كان معروفاً في أقطار أخرى من العالم العربي الإسلامي على تلك الهيئة أو على أشكال أخرى .

ويتكون السلسبيل من الشاذروان وهو لوح من الرخام أو الحجر الصلب وضع مائلاً على جدار في صدر الحجرة أو القاعة أو الإيوان ، وكان ينقش سطح اللوح بزخارف دقيقة كثيرة التعاريج تتراوح درجات أعماقها ، وذلك لينساب عليها الماء منحدراً من صنبور غالباً ما كان من الرصاص أو النحاس ، ويسيل الماء متعرجاً في القنوات بين تلك الزخارف المحفورة فيتعرض للبخر وتنقص درجة حرارته ، وبالتالي درجة حرارة المكان ، نحواً من ست درجات مئوية وربما إلى أكثر من ذلك ، ولو اقترن عمل السلسبيل بعمل الملقف كما ذكرنا في الفقرة السابقة لوصلت درجة التبريد إلى نحو عشر درجات مئوية .

واستخدم السلسبيل لتبريد الماء في الأسبلة التي كانت تشيد لشرب الناس في الطرق العامة ، بل كان هو العنصر الأساسي في عمل تلك الأسبلة (ش : ٢٥٩) .

ونقترح إعادة استعماله في الوقت الحاضر والمستقبل ، ويمكن الاستغناء به وبالملقف عن الأجهزة الآلية والكهربائية الباهظة التكاليف ، وبخاصة للمجتمعات التي ترهقها أسعار تلك الأجهزة . هذا ومن الممكن عمل فكرة السلسبيل والملقف في قالب معماري جذاب يزيد من الجمال والبهجة في التصميمات الداخلية لوحدات العمائر .

* * *

ومن المبتكرات المعمارية التي انتشر استعمالها في جميع العصور الإسلامية وفي جميع الأقطار وتتميز بالجدة والواقعية من ناحية وبالطرافة والجمال من ناحية أخرى ، العنصر المعروف بالمشربيات ، وهي ستائر أو أحجبة من الخشب المخروط والمعشق مع بعضه البعض وفي تكوينات

هندسية غاية في الطرافة ، وبرع في عملها الفنانون العرب في جميع البلاد ، ويرجع أقدم مثل ما زال قائماً منها في مقصورة جامع القيروان والتي تؤرخ في ٢٤٩ هـ (٨٦٣م) ، ولا نظن أن المشربيات في حاجة إلى تعريف أو وصف فهي منتشرة ومألوفة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وما نزال نشاهد أمثلة لا حصر لها في الأحياء القديمة من المدن العريقة ، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والقاهرة وتونس وغيرها من مدن العالم الإسلامي ، في شرقه ووسطه وغربه (ش : ٢٦١ و٢٦٢) .

غير أن معظم تلك الأمثلة ، إن لم تكن كلها ، تعود إلى أواخر العصر العثماني الذي انتشرت فيه كما كانت منتشرة من قبله في العصور السابقة .

وبقاء تلك الأمثلة من المشربيات لخير دليل على الفوائد الكبيرة التي يجنيها الناس من استعمالها في العصور الحديثة . إذ أنها تسمح بمرور الهواء ثم بتلطيفه مع كسر حدة الضوء وشدة الحرارة الناتجة من الشمس المتوفرة في أغلب البلاد الإسلامية . أضف إلى ذلك ما كانت تقوم به من حفظ حرمة أهل الدار من أن يجرحها الغرباء أو المارين في الطرق ، أو زوار الدار من الرجال .

وتتخذ المشربية أشكالا مختلفة ، بعضها بارز عن وجه الجدار كالشرفات ، أو يستوي معه بغير بروز ، وهي تتفاوت في أحجامها وتصمياتها ، كما أنها في أحيان كثيرة كانت تزود بضلف من الزجاج والخشب لمنع البرد والتيارات الهوائية في بعض المواسم التي تتطلب ذلك .

ومن الخسائر التي أحدثتها التقاليد الغربية بالعمارة الإسلامية أن أغرت الناس بالاستغناء عن المشربيات مثل غيرها من العناصر والمبتكرات الإسلامية التي تتمشى مع ظروف البيئة ، وليست هناك أية صعوبات أو موانع تعوق عودة استعمال تلك المشربيات بعد تطويرها لتتفق مع الخامات وأساليب البناء الحديثة ، فإن البيئة المناخية ترحب بذلك أكبر ترحيب ، ولا بأس من استخدام الخامات القديمة التقليدية مثل الخشب إذا ما سمحت الموارد المالية باستخدامها ، أو من المواد المصنعة التي تنتج بكميات تجارية لتخفيض تكلفتها ، مثل البلاستك أو اللدائن ، ومثل الخشب المضغوط أو الموارد التي يمكن صبها في القوالب ، أو الألياف الزجاجية ، أو الألومنيوم الملون أو غير ذلك من المواد .

كذلك يمكن غلق الفراغات التي تشغلها المشربيات بضلف من الزجاج والخشب أو الألومنيوم للتحكم في مرور الهواء عند الحاجة .

هذا ومن البديهي أن يقتصر استعمالها على العمائر السكنية الخاصة وشبه الخاصة ، وربما امتد إلى أنواع أخرى من العمائر العامة والتجارية . ومما لا شك فيه أن تغطية الفراغات الكبيرة بالمشربيات يفضل كثيراً تغطيتها بمسطحات من المعدن والزجاج في بلاد تشتد فيها حرارة وضوء الشمس .

* * *

وهناك موضوع حظي بكثير من الطنطنة والدعاية وهو العودة إلى استعمال المواد والأساليب التقليدية مثل اللبن ، وذلك لما يتمتع به من مزايا تتفق مع العوامل المناخية والاقتصادية ، وهي لا شك مزايا قد تأكدت بالأدلة والبراهين العلمية والعملية ومن صلاحيتها للبلاد الإسلامية منذ العصور التاريخية وإلى عهد قريب .

غير أن الظروف الواقعية والتطورات التي حدثت في العالم كله وتأثرت بها البلاد العربية والإسلامية تضعف إلى حد كبير من فرص استخدام اللبن كمادة عملية للبناء ، وتكاد تحصره في نطاق محدود لا يتجاوز متطلبات المجتمعات الريفية وطبقات العمال ذوي الدخل المتواضع ، وهم عادة الذين يقنعون بمسكن يحمي الأفراد منهم وعائلاتهم من تقلبات المناخ ومن عيون الغرباء ، ولا يهمهم الجانب الاقتصادي الذي يهم له أهل المدن وذلك من حيث بقاء المسكن فترة طويلة من الزمن حتى يمكن استغلاله اقتصادياً .

ومن البدهي أنه لا يمكن استخدام اللبن كمادة لبناء الجدران التي تحشو ما بين الأعضاء الانشائية من الخرسانة المسلحة والحديد في العمائر التجارية والتذكارية والعامة والسكنية من النوع المتوسط أو فوق المتوسط .

بل إن بعض البلاد الإسلامية مثل دول الشام لا يتوفر فيها الطمى أو الطفل الذي يصلح لعمل قوالب اللبن منه ، ومن المعروف أنه قد عز وجود الطمى في مصر منذ بناء السد العالي ، وتزداد ندرته مع مرور الزمن .

ولكننا لا نتصور أن تعجز التكنولوجيا الحديثة عن ابتكار المواد والخامات التي تتمشى مع الظروف المناخية والاقتصادية القائمة في البلاد الإسلامية ، وقد قطعت الأبحاث أشواطاً في تلك النواحي ، ومنها على سبيل المثال الخرسانة سابقة التجهيز ، ومنها الخرسانة المسامية ، والخامات المصنعة من الألياف واللدائن ، وغيرها من الأشكال والأنواع التي لا تقع تحت حصر ، ولا يمر يوم إلا وتظهر في الأسواق أنواع وأشكال جديدة ، ولن تقف جهود الباحثين في تلك الميادين عند حد ، ولا نشك في أنهم سيصلون إلى ابتكارات وبدع توفر الراحة الجسمانية والنفسية لأغلب الناس على اختلاف طبقاتهم وقدراتهم .

* * *

وما ذكرناه فيما سبق من فقرات ليس إلا بضع وحدات تخطيطية وعناصر معمارية ما زالت البيئة المناخية والتقاليد الدينية والاجتماعية في الحاضر في أشد الحاجة إليها وغالباً ما ستظل في نفس الحاجة إليها في المستقبل .

وهناك عدد آخر يمكن أن يطور ويوضع في قوالب جديدة تتمشى مع كل من التقاليد البيئية الأصيلة وفي نفس الوقت مع التيارات والمبتكرات والاتجاهات الحديثة ، نذكر منها على سبيل المثال : القاعة التي تتوسطها نافورة ، ويمكن أن ينتفع بالأفكار الحديثة فيها باستعمال محرك كهربائي صغير لضغط الماء فيها ثم إعادته بطريقة آلية للاقتصاد في استهلاك المياه ولا يستنفذ إلا طاقة لا تكاد تذكر . وهناك « المقعد » ، وهو إيوان أو شرفة مغطاة ومفتوحة من أحد جوانبها على حديقة أو فناء وتواجه الجهة التي يأتي منها النسيم اللطيف عادة ، إلى غير ذلك (ش : ٨٦) .

ولا ندعي أن بإمكاننا أن نغطي هذا الموضوع كله في العدد القليل من الصفحات التي أتينا بها ، ونحن على ثقة بأن الزملاء من المعماريين العرب والمسلمين الذين يعنون بدراسة العمارة الإسلامية في عمق وإيمان بأصالتها وبإمكان تطويرها وإخراج قوالب وأشكال منها تتفق مع النظريات الحديثة ، والتي تقوم أولا وآخراً على تلبية وكفاية متطلبات الناس في البيئات المختلفة وتلائم الظروف والعوامل العالمية والمحلية .

* * *

ومن الجدير بالذكر أن الفنون الفرعية من تشكيلية وتطبيقية وزخرفية تعد من مكملات العمارة ، فإنها إذا خلت منها أصبحت جافة لا توحي براحة نفسية ولا إحساس بالجمال ، وهي جوانب معنوية لا يمكن أن يستغني عنها البشر مهما بلغت درجات ثقافاتهم ومهما جرفتهم تيارات الحياة الآلية التي تسود هذا العصر ، أو حتى إذا انخفضت إلى مستوى متخلف إذا قيست بموازين المدنية الغربية ، فإن الإحساس بالجمال في الحياة هو الذي يفرق بين الإنسان والجماد ، بل إن الحيوان يتمتع بذلك الإحساس ويعبر عنه بما وهبه الخالق من طرق غريزية وفطرة تكشف عن ميله إلى الجمال .

وتتفاوت الأذواق والأساليب في التعبير عن النواحي الجمالية تبعاً لتفاوت عقليات التجمعات البشرية في أنحاء الأرض ، وتتخذ في منتجات العمارة والفنون أنواعاً من التصميمات والأشكال والقوالب تختلف باختلاف تلك العقليات والعادات والتقاليد في كل بيئة .

ومن الواضح لنا حتى الآن أن العقليات الغربية في الوقت الحاضر قد جعلت ذلك التعبير يتخذ قالباً جافاً صارماً أحياناً وآلياً أحياناً أخرى . أما العقليات الشرقية ، وبهمنا منها عقليات الناس في البلاد الإسلامية ، فإنها لا يمكن أن تستغني عن الناحية الجمالية وعن الميل إلى البعد عن الجفاف والآلية والصرامة ، وما اندفاعهم إليها في الوقت الحاضر إلا انجذاب مؤقت سرعان ما يضيع ويتلاشى ويعود الناس إلى طلب تلك الناحية الهامة ولا مناص للمعماريين والفنانين المسلمين من أن يوفوها حقها ، وفي القوالب التي تلائم البيئات الإسلامية ، وسيجدون في الميادين التي أشرنا إليها كنوزاً لا تنضب من مصادر الإلهام إذا ما عنوا بارتيادها واستجلاء أعماقها .

* * *

ومما سبق من دراسات مختصرة ومن تحليل مركز نستطيع أن نجيب بالإيجاب على التساؤل الذي يدور في خلد الكثيرين عن إمكان النهوض بالعمارة الإسلامية وبتقاليدها ومفهوماتها المتوارثة وتطويرها وتطويع النظريات والأساليب والمواد الإنشائية والعلمية والتكنولوجية الحديثة بحيث تعبر عن البيئة الإسلامية ، والتي لا يمكن أن تذوب في الحضارة الغربية بتلك السهولة التي يتصورها الناس .

ومن الجدير بالذكر أن بعض المعماريين من العرب والمسلمين قد حاول إحياء تقاليد من العمارة الإسلامية ، غير أن منهم من تشدد في التمسك بتفاصيلها والأساليب التقليدية في البناء ، مما جعلها تبدو غريبة حائرة في وسط التيارات والدوامات الغربية الحديثة . وفي اعتقادنا أن محاولاتهم هذه ستجعلها تبدو جامدة متحجرة لا أمل في عودتها إلى الحياة أو التمشي مع تيارات التطور التي لا مفر للعرب والمسلمين من مجاراتها بطرق وأساليب لا تنال من أصالة المجتمعات الإسلامية .

وبالإضافة إلى ما أشرنا إليه من الخليط الذي ينتجه معماريو وزارة الأوقاف المصرية في مساجدها فهناك خليط من نوع آخر يزاول إنتاجه بعض المستشارين الغربيين في المملكة العربية السعودية لإضفاء طابع إسلامي على المباني التي تقام حالياً في مدنها الرئيسية . ومنه ما أشرنا إليه من عمل بائكات من عقود تشبه الأشكال الإسلامية في الطوابق الأرضية ثم يترك الحبل على الغارب لمن تسول له نفسه أن يصمم الطوابق العليا على أي طراز يشاء .

* * *

وكنا نأمل من بعض المعماريين العرب والمسلمين ومن المصريين بوجه خاص ممن حصل على مرحلة ابتدائية أو إعدادية في دراسة العمارة الإسلامية ثم درس ناحية من العمارة الغربية في أوروبا أو أمريكا أن يحمل أمانة النهوض بالعمارة الإسلامية في ضوء الاتجاهات الغربية الحديثة ، ولكن مما يدعو للأسف أن منهم من تنكر لها وحمل عليها بضراوة حتى قرر أنها ماتت ولن تقوم لها قائمة . ولعله في ذلك كان أكثر رحمة بها من بعض آخر ركز جهوده على قتلها بأن أشاع عن نفسه بأنه يدري عنها الكثير وأنه يقوم على إحيائها ، ولم يفعل أكثر من إضافة بعض التفاصيل مثل عقود أو قباب أو شرافات يدعي أنها إسلامية الطراز وهي لا تمت إليه بصلة ، اللهم إلا في مخيلة صاحبها .

وكل تلك المحاولات التي لا تقوم على أساس من الدراسة والفهم العميقين لا شك تسيء أكبر إساءة إلى العمارة الإسلامية ولا تجعل لها أملاً في حاضر أو في مستقبل ، بل إنها لتؤدي إلى وأدها إلى الأبد بسبب ما تحدثه من البلبلة وعدم الثقة بها في نفوس العرب والمسلمين ، خاصتهم وعامتهم .

* * *

ولما كان الأمر في نشر الوعي الصحيح عن العمارة الإسلامية بين المعماريين وكذلك الفنانين من جهة ، وبين الهيئات والأفراد في الأقطار الإسلامية من جهة أخرى ، يعتمد في المقام الأول على المراكز الأكاديمية في كل منها فإني أود أن أختم البحث الذي أعددته في الصفحات السابقة بتسجيل فكرة طلب من سعادة الأستاذ الدكتور جعفر صباغ وكيل جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة دراستها تمهيداً لمناقشتها واتخاذ الاجراءات الكفيلة بتحقيقها .

وتقوم تلك الفكرة على إنشاء معهد للدراسات العليا للبيئة الإسلامية من نواحيها المختلفة وعلى رأسها العمارة الإسلامية . وهي فكرة صائبة إلى أبعد الحدود . وألخص هنا النقاط الرئيسية التي رأينا أنها تساعد على تنفيذ تلك الفكرة وعلى دوام نجاحها ، وهي أن يلتحق بالمعهد الحاصلون على البكالوريوس في العمارة (أو في غيرها من علوم البيئة الإسلامية) من الجامعات العربية والإسلامية أو

من غيرها مما توازيها ، وبحيث ينقطع أولئك الخريجون لمتابعة برامج دراسية معينة بالمعهد ، يعدون بعدها أبحاثاً في العمارة الإسلامية ، ويمنحون على أساسها درجتا الماجستير والدكتوراه .

ولكي تقوم الفكرة على أسس واقعية ، اقترحت أن يعامل أولئك الباحثون معاملة مالية تتوازى مع زملائهم ممن نزلوا إلى الميادين العملية ، وذلك من حيث المرتبات ، والميزات المالية ، بل ويمكن زيادتها ، حتى يقبلون على الانقطاع لتلك الدراسات والتفاني فيها .

وتتعدد المكاسب التي ينتظر حصادها من تلك الدراسات ومن جهود أولئك الباحثين . فمنها أن خريجي ذلك المعهد وأمثاله يمكنهم أن يزاولوا مهنهم المعمارية على أسس وقواعد سليمة إلى أبعد حد من المعلومات العميقة التي لا سطحية فيها .

ومن تلك المكاسب أن أبحاثهم العلمية وخبراتهم العملية ستكون قدوة يحتذى بها الزملاء في الميادين العلمية والعملية . وكل ذلك سينشر ، مع مرور الزمن ، الوعي الصحيح المطلوب بقيم وأصالة العمارة الإسلامية ، ثم بالفوائد الأدبية والمادية التي يحصل عليها الناس من التوفيق بين مميزاتها ومميزات الاتجاهات والمبتكرات الحديثة بما يوفر لهم حياة مريحة طيبة في جو إسلامي مستقر يجمع بين الروحانيات والماديات التي لا غنى عنها مهما حدث من تطورات .

شكرا لحسن المتابعة والاصغاء